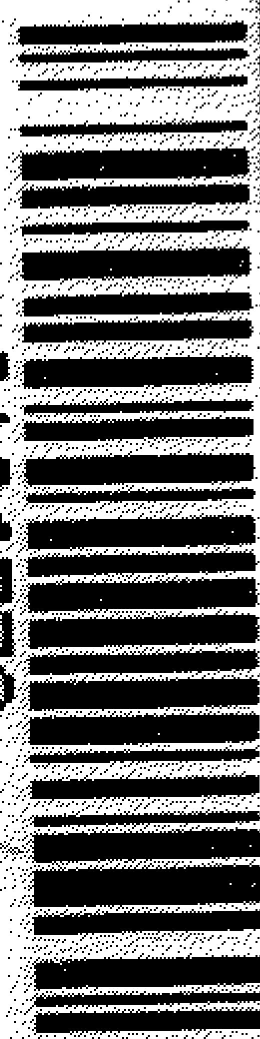
معركة الخلافة

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معركة الزلاقة

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة الزلاّقة

٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م

الدكتور عمر الدقاق

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سوريا - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجردة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ - معركة الحدثا الحمراء — معركة الزلاقة
٣ - معركة حطين — معركة الارك
٥ - معركة المنصورة — معركة عين جالوت
٧ - معركة فتح القسطنطينية — معركة وادي المخازن
٩ - معركة ميسلون — معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

بلادُ الأندلسِ

بلادُ الأندلسِ، أو ايبيريا، شبهُ جزيرةٍ في أقصى الجنوبِ الغربيّ مِنْ أوروبا. تتصلُ براً بالقارةِ الأوربيةِ من جهةِ الشمالِ الشرقيِّ حيثُ تحجزُها عن فرنسة جبالُ البيرينه (البرانس) الوعرةُ. أما سائرُ الجهاتِ فتحدِقُ بها البحارُ، فمِنَ الشرقِ بحرُ الرومِ أي الأبيضُ المتوسطُ، ومِنْ الغربِ بحرُ الظلماتِ أي المحيطُ الأطلسيُّ، ومن الجنوبِ مزيجٌ من مياهِ البحرين: الأبيضِ والأطلسي، أوْ ما كانَ العربُ يطلقون عليه اسمَ بحرِ الزقّاقِ، والذي

عُرِفَ باسمِ مَضيقِ جبلِ طارقٍ منذُ الفتحِ العربيِّ حتى يومنا هذا، ومن وراء ذلكَ كان يمتدُّ البرُّ الأفريقي.

وتكادُ جزيرةُ الأندلسِ تلاصِقُ هذا البرَّ الأفريقي لولا ذلك المضيقُ الذي يفصلُ بين القارتينِ والذي لا يتجاوزُ في بعضِ شواطئهِ المتقابلةِ نحو خمسةَ عشرَ كيلومتراً.

لقد فتحَ العربُ المَغربَ الأفريقيَّ على مراحلَ، كانت خلالَها الغزواتُ الإسلاميةُ بينَ مدٍّ وجزرٍ منذُ الحملةِ الرائدةِ بقيادةِ عُقبةَ بنِ نافعٍ. ثم أخذ موسى ابنُ نُصيرٍ، وهو من أقدرِ رِجالِ الدولةِ الأمويةِ وأذكاهُمْ يتطلعُ إلى ما وراءَ بحرِ الزقاقِ، حيثُ تقعُ في اسبانيا مملكةُ القوطِ المتصدعةُ، ولكنهُ كان شديدَ الانهماكِ في شؤونِ أفريقيةَ المضطربةِ. فعادَ إلى

القيروان مخلفاً على منطقةِ المغربِ الأقصى زعيمَ الجندِ طارقَ بنَ زيادٍ. وكان طارقٌ يطمحُ ــفيما يبدوــ إلى اقتحام حصنِ سبتةَ الافريقيِّ المنيعِ الذي استعصى فتحُه على قائدَينِ من قادةِ العربِ هما عقبةُ ابنُ نافعٍ وموسى بنُ نُصيرٍ، ومن قاعدةِ سبتةَ يتيسرُ الانطلاقُ نحوَ بلادِ الفرنجةِ فِي اسبانيا وغربيِّ أوربة.

وكان أنْ عبَر طريفٌ ــأحدُ أعوانِ طارقٍ ومِنْ رجالِ موسى بنِ نصيرــ المضيقَ بكتيبةٍ صغيرةٍ بحراً على بضعِ سفنٍ قدَّمها (يوليان) حاكمُ سبتة، وكان هذا يتقربُ مِنَ العربِ حقداً على خصومِهِ الفرنجةِ في اسبانيا وزعيمِهِم (لُذَريق). إنّها بمثابةِ بعثةِ استطلاعٍ ومحاولةِ اختبارٍ جرَتْ سنة ٩١هـ، ٧١٠م. وحينَ عادتْ السريةُ لِتُطَمئِنَ موسى وتقوي من عزمِهِ

على فتحِ ايبريا، عبرَ المسلمونَ البحرَ بقيادةِ طارقِ بنِ زيادٍ سنة ٩٢هـ، ٧١١م، وكانْ عددُهم سبعةَ آلافِ رجلٍ، ونزلوا في مكانٍ دانٍ عرف منذ ذلكَ اليوم بجبلِ طارقٍ.

واستطاعَتْ كتائبُ العربِ دحرَ الحامياتِ القوطيةِ بيسرٍ، وعندئذٍ هبَّ لذريقُ لملاقاتِهم، وحدثَتْ بينَ الجيشينِ معركةُ (وادي لكه) التاريخيةُ. وكانت فاصلةً غدَتْ بعدَها أبوابُ البلادِ مفتحةً أمام المسلمينَ.

وحينَ تمَّ الفتحُ بعثَ موسىٰ بنُ نصيرٍ بابنِهِ عبدِ العزيزِ والياً على الأندلسِ، يحكمُها باسمِ الخليفةِ الأمويِّ في دمشقَ. ومضى الولاةُ بعدئذٍ يتعاقبونَ على حكمِ ولايةِ الأندلسِ، دونَ أنْ تعرفَ هذهِ البلادُ في عَهدِهِمُ استقراراً ولا ازدهاراً.

وبعدَ أقلّ منْ نصفِ قرنٍ من عامِ الفتحِ ظهرَ في ربوعِ المغربِ أميرٌ أمويٌّ كانَ قدْ هربَ من بلادِ الشامِ ناجياً بنفسِهِ من بطشِ العباسيينَ الذينَ أطاحُوا بالحُكمِ الأمويِّ في دمشقَ سنة ١٣٢هـ، ٧٥٠م. إنهُ الأميرُ العربيُّ الفذُّ عبدُ الرحمنِ بنُ معاويةَ بنِ هشامِ بنِ مروانَ.

ثم دخلَ عبدُ الرحمنِ ولايةَ الأندلسِ فكثُرَ صحبُهُ وسطعَ نجمُهُ، حتَّى استطاعَ توليَ شؤونِ الحكمِ بذكائهِ ومواهِبِهِ فلُقِّبَ بالداخِلِ. وهناكَ أسَّسَ مُلكاً عَربياً اسلامياً عظيماً كانَ بديلاً للحكمِ الأمويِّ الذي انهارَ في دمشقَ، وقد اتخذَ الداخلُ من مدينةِ قرطبةَ عاصمةً لدولتِهِ الفتيةِ.

وكان عهدُ الداخلِ في هذهِ المرحلةِ المبكرةِ مِنْ حياةِ الأندلسِ عهدَ كفاحٍ مريرٍ في سبيلِ توطيدِ

الملكِ، ونشرِ الاستقرارِ في ربوعِ الدولةِ الوليدةِ. وقد خاضَ حروباً كثيرةً ضدَّ الإسبانِ المسيحيينَ الذين كانوا يكرُّونَ على البلادِ مِنْ الشمالِ كلَّما واتَتْهم الظروفُ، حتى افلحَ آخرَ الأمرِ في تأمينِ الحدودِ وإعادةِ الطمأنينةِ إلى النفوسِ، ولا سيَّما بعد أنْ دَحَرَ جيشَ شارلمان وفتحَ سَرقُسطةَ.

وتعاقبَ على البلادِ نفرٌ مِنْ أمراءِ بني أميةَ، عرفَتِ الأندلسُ في ظلهم المنعةَ والازدهارَ.

وقد بلغتِ الدولةُ الأمويةُ في الأندلسِ بعد ذلكَ أوجَ قوتِها حين تسلَّمَ عبدُ الرحمنِ الناصرُ شؤونَ الحكمِ في فجرِ القرنِ الرابعِ الهجريِّ، وقد دامَ حكمُهُ ٥٠ عاماً كانَتْ نعمةً وبركةً على البلادِ. ثم عزمَ الناصرُ على أنْ يعلنَ نفسه خليفةً في سنةِ ٣١٧هـ. وكانَ أمراء بني أميةَ من قبلُ يتهيَّبُونَ هذهِ الخطوةَ

تحرجاً من وجودِ خليفتينِ معاً للمسلمينَ، غير أنّ قوةَ الدولةِ في الأندلسِ وما كانَ يبلغُ مسامعَ الناصرِ من أخبارِ ضعفِ خلفاءِ بني العباسِ... كلُّ ذلكَ جعلَ إعلانَ الخلافَةِ في الأندلسِ خطوةً معقولةً بل لازمةً.

وقد خاضَ الناصرُ حروباً عديدةً، كشأنِ أسلافِهِ، ضدَّ الفرنجِ في الشَّمالِ كانَ النصرُ خلالَها حليفَهُ في معظمِ الأحيانِ. فهابَتْهُ الملوكُ وقدِمتْ إليهِ وفودٌ من القسطنطينيةِ وفرنسا وإيطاليا والمانيا تُعرِبُ عن وُدِّها له وتعرِضُ صداقَتَها عليهِ.

ثم خلفَ الناصرَ بعدَ وفاتِهِ ابنُهُ الحَكَمُ (٣٥٠-٣٦٦هـ)، وكانَ عهدُه امتداداً لعهدِ أبيهِ من حيثُ القوةُ والمنعةُ والتقدمُ والازدهارُ. وحينَ توفيَ الحَكَمُ تركَ ولداً قاصراً تولّى الحكمَ باسمِهِ المنصور ابنُ أبي عامرٍ المعروفُ بالحاجبِ، واستأثرَ بزمامِ

الأمورِ بعدَ ذلكَ دونَ أنْ يأبَهَ لولي العهدِ الذي بلغَ السنَّ التي تخولُه التربعَ على عرشِ الملكِ. غيرَ أنّ الحاجبَ المنصورَ كانَ على قدْرٍ كبيرٍ من الذكاءِ والحزمِ، فاستطاعَ أنْ يحكمَ الأندلسَ بنجاحٍ بعدَ أنْ خضد شوكةَ الفرنجةِ وأقصاهم عن تخومِ البلاد داحراً إياهم إلى الشَّمالِ. ويُعَدُّ المنصورُ آخرَ حلقةٍ في سلسلةِ الحكامِ الأقوياءِ في دولةِ بني أميةَ الزاهرةِ.

ثم أخذَ نجمُ الأمويينَ في الأفولِ تبعاً لضعفِ خلفائِهم بعدَ ذلكَ، وكانَ أنْ تصدَّعَ حكمُهم حتَّى شارَفَ الانهيارَ بعدَ حقبةٍ تقاربُ أربعةَ قرونٍ تُعَدُّ أزهى عهودِ العروبةِ والاسلام في الأندلس

وبنتيجةِ ضعفِ السلطةِ المركزيةِ لخلفاءِ بني أميةَ على الأقاليمِ أخذَ بعضُ الولاةِ الطامعينَ يستقلون

بمناطِقِهم ويحكمونَها حُكماً مباشراً . وقد عُرِفَ هؤلاء الحكامُ في التاريخ بملوكِ الطوائفِ. وأكثرُ دو يلاتِهِمُ اتخذَتْ من حواضرِ الأندلسِ ومُدُنِها الهامةِ عواصمَ لَها، ومنها الدولةُ الزيريةُ في غرناطةَ، والدولةُ الحموديةُ في مالقةَ والجزيرةِ الخضراءِ، والدولةُ الهوديةُ في سرقسطةَ، والدولةُ العامريةُ في بلنسيةَ، ودولةُ بني الأفطسِ في بَطليوسَ، ودولةُ ذي النونِ في طليطلةَ...

غيرَ أنَّ أهمَّ دولِ الطوائفِ وأبعدَها أثراً كانَتْ دولةَ بني جَهْورٍ في قرطبةَ ودولةَ بني عَبّادٍ في اشبيليةَ.

وهَكذا، عندما غربَتْ شمسُ القرنِ الرابعِ وأطلَّ فجرُ القرنِ الخامسِ بدا جليّاً أنَّ عهدَ المنعةِ والوحدةِ في ربوعِ الأندلسِ قد آذنَ بالمغيب. لقدِ استطاعَ الحاجبُ المنصورُ ــقبلَ حينٍــ أنْ يُطيلَ

أمدَ سيادةِ قرطبةَ وأن يمدَّ في أجلِ الدولةِ العربيةِ الواحدةِ بفضلِ ما أوتيَ من مؤهلاتٍ ومواهبَ. كانَ كلُّ شيءٍ مُرتَهناً بقوةِ الحاكمِ واقتدارِه، فما إنْ زالَ هذا الحاكمُ وزالَتْ معَهُ هالةُ الخلافةِ الأمويةِ حتى انطلقَتِ المطامعُ واشرأبَّتِ الأهواءُ، فسادَت الفوضَى، وتمزقَت بلادُ الأندلسِ شرَّ ممزقٍ. وهكذا صارَتِ الدولةُ إلى دولٍ، وغدا لكلِّ دولةٍ ملكٌ أو أميرٌ. وراحَت هذهِ الممالكُ تتصارعُ ويكيدُ بعضُها لبعضٍ، وجعلَ كلُّ حاكمٍ يتربصُ بالآخرِ ويتطلعُ إلى ضمِّ ملكِهِ إليهِ والانقضاضِ عليهِ، على حينَ كانَ هو في الوقتِ نفسِهِ يتوجَّسُ خيفةً من جارِهِ ويدأبُ على الحذَرِ منهُ، فيجهدُ في انفاقِ المالِ على الحصونِ والقلاعِ، والاستِكْثارِ من المُرتزِقةِ والحراسِ والعيونِ والأعوانِ.

وهكَذا غدَتْ قضيةُ الحدودِ في الداخلِ وأمنُ البلادِ واستقرارُها مشكلةً تستأثرُ باهتمامِ الحكامِ وتقضُّ مضاجِعَهم. وبذلكَ انكشَفوا أمامَ العدوِّ واستسلموا لمشيئتِهِ، ورضُوا صاغرينَ بدفعِ الجزيةِ إليهِ. بلْ كثيراً ما استعانوا بالأجنبيِّ على إخوتِهم وأبناءِ عمومتِهم في سبيلِ استردادِ حقوقِهم أو تحقيقِ مآربِهمْ.

دويلاتٌ متصارعةٌ

أخذَتْ دولةُ بني عَبّادٍ في اشبيليةَ تتألقُ بينَ دويلاتِ الطوائفِ، وقد استطاعَ جَدُّ بَني عبادٍ أولَ الأمرِ، وهو القاضي أبو القاسمِ، أنْ يحكمَ اشبيلية برغبةٍ مِنْ أهلِها، وكانَ حازماً حكيماً جمَّ المواهبِ، وقد أفلحَ في السيرِ بدولتِهِ في طريقِ العزةِ، وبذلكَ وضعَ أساسَ دولةِ بني عبادٍ وأرسَى قواعدَها.

ثمَ خلفَ المعتضدُ والدَه القاضيَ أبا القاسِمِ، وكانَ من أقوى الشخصياتِ التي عرفَها تاريخُ الأندلسِ في عصرِ ملوكِ الطوائفِ. فقد عُرِفَ

بالدهاءِ وبُعْدِ الغورِ، كما عُرِفَ بالشدةِ والجبروتِ، وكانَ في الوقتِ نفسِه أديباً يجيدُ نظمَ الشعرِ ويشجِّعُ الأدبَ والعلمَ.

وفي عهدِ المعتضدِ قويَتْ حركةُ الاستردادِ الإسبانيةُ التي لمْ تكنْ لِتكفَّ يوماً عن انتهازِ الفرصةِ للانقضاضِ على ربوعِ العربِ ومدائنِهم، كانَ هذا دَأْبُها منذُ القرونِ العديدةِ السالفةِ، بلْ منذُ أيامِ الأميرِ الأمويِّ الأولِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ. لقد استطاعَ فرناندو الأولُ ملكُ قشتالة وليون أنْ يجيِّش الجيوشَ لمحاربةِ مسلمِي الأندلسِ. وكانت تحدو رجالَه النزعةُ الحربيةُ والحماسةُ الدينيةُ، ولذلكَ أحرزَ انتصاراتٍ باهرة. ولم يكنْ في وسعِ أحدٍ من ملوكِ الطوائفِ أن يكونَ لهُ نداً، ولم يجدْ بعضُ ملوكِ الطوائفِ وسيلةً لدفعِ شرِهِ وكفِّ أذاهُ سِوى أنْ

يقدّموا لهُ كَميات ٍ وافرةً من الذهبِ والفضةِ والأحجارِ الكريمةِ، معَ اداءِ الجزيةِ السنويةِ إليهِ اذعاناً لهُ واعترافاً بسلطانِهِ.

ومعَ أنَّ المعتضدَ العباديَّ كانَ أقوى ملوكِ الأندلسِ العربيةِ في ذلكَ العصرِ فإنَّ جيوشَ الملكِ القشتاليِّ قدْ عاثتْ فساداً في أطرافِ حاضرةِ ملكِهِ اشبيليةَ، فأحرقت القُرى، ونهبَتِ الأرزاقَ، دونَ أنْ يستطيعَ المعتضدُّ أنْ يتصدى لهُ ويوقِفَهُ عندَ حدِّهِ. بل إنَّ هذا الملكَ العربيَّ، برغمِ بأسِهِ، وجدَ من الحكمةِ أن يصانِعَ ويُهادِنَ خَصمَهُ. لقد فعلَ ما فعلَهُ أضرابُهُ من ملوكِ الطوائفِ، فقصدَ إلى زيارةِ معسكرِ فرناندو وقدَّمَ لهُ الهدايا الثمينةَ، مُلتمساً منهُ أنْ يبقيَ عَليهِ ملكَهُ.

وحينَ آلَ الحكمُ في اشبيليةَ إلى المعتمدِ بعدَ أبيهِ

المعتضد، بدا جلياً أنَّ هذا الأميرَ الشابَّ الذي لم يبلغِ الثلاثينَ من العمرِ قد ورثَ تركةً ثقيلةً. ولكنَّهُ ما لبثَ أنْ أثبتَ جدارتَهُ بعرشِ اشبيليةَ. فقد ضارعَ أباهُ المعتضد بشجاعتِهِ وحزمِهِ بلْ فاقَهُ بكياستِهِ وحُسن إدارتِهِ. وكانَ المعتمدُ شاعراً مجيداً وأديباً ذواقةً، وانعقدَتْ بينَه وبين أعلامِ الأدبِ والشعرِ وشائجُ متينةٌ، في مقدمتِهِمُ الشاعرُ ابنُ زيدون والشاعرُ ابنُ عمارٍ، حتَّى إنَّ ابنَ عبادٍ اتخذَ منهُما وزيريْنِ لهُ في تدبيرِ شؤونِ مملكَتِه.

لقد تمرسَ المعتمدُ على يدي والدِهِ المعتضد بشؤونِ الدولةِ وسياستِها منذُ أن كانَ فتًى، وقادَ الجيوشَ لأبيهِ مذْ غدا يافعاً. وكانَتْ حياتُه في شبابِهِ قسمةً بينَ المغامرةِ وبينَ التمتعِ بالملذاتِ، كشأنِ كثيرٍ من الحكامِ والفرسانِ في ذلكَ العصرِ سواءٌ عندَ الفرنجةِ وعندَ المسلمينَ.

وقد ابتسمَ الحظُّ للمعتمدِ الطموحِ حينَ استطاعَ أن يحققَ أمنيةً عزيزةَ المنالِ لم يستطعْ أبوهُ المعتضد ولا جدُّهُ القاضي أبو القاسم ِان يبلُغاها، على بأسِهما واقتدارِهما، إذْ لمْ تكُنِ الظروفُ مواتيةً لَهما. فقد تمكَّنَ المعتمدُ من التغلبِ على دولةِ بني جهورٍ، وأفلحَ في الإطاحَةِ بهم وضمِّ ملكِهم إليهِ. وهكذا خضعَتْ قرطبةُ، ذاتُ الأمجادِ وعاصمةُ الخلافةِ وحاضرةُ العلمِ والأدبِ، لسلطانِ بني عبادٍ.

أمّا المعتمدُ الظافرُ الذي حققَ حلمَهُ القديمَ بالخديعةِ فقد أساء معاملةَ أميرِ قرطبةَ أبي الوليدِ بنِ جهورٍ وكانَ يُعاني منْ وطأةِ الشللِ، فلم يرعَ له عهداً ولا لأهلِهِ حرمةً، ثم نفاهُ مع اسرتِهِ إلى جزيرةٍ موحشةٍ حيثُ ماتَ كمداً بعدَ أربعينَ يوماً من محنتِهِ. ولمْ يكُنِ المعتمدُ يدري وهو في نشوةِ الظفرِ «ما كانت تخبئه له الأيامُ وأنَّ الدهرَ سوف يسقيه من الكأسِ التي سقى

منها خصمَهُ» و يُذيقُهُ الذلَّ ألواناً.

ولا مراءَ في أنَّ الظفرَ بقرطبةَ كانَ بحقٍ انتصاراً عظيماً للمعتمدِ. إلاّ انَّ للمسألةِ وجهاً آخرَ، فهذا النصرُ لم يكُنْ في واقعِ الأمرِ نصراً حقيقياً، لأنهُ أشبهُ بظفرِ الأخِ على أخيهِ، أو ابنِ العمِّ على ابنِ عمهِ. أجَلْ، كانَ المعتمدُ بنُ عبادٍ قوياً حينَ يقاسُ بالأمراءِ المسلمينَ في الأندلسِ، فهو أشدهُم بأساً، وأوسعُهمْ مُلكاً، وأعظمُهمْ سلطاناً. ولكنهُ من جهةٍ أخرى كان مثلَهم يُؤدي الجزيةَ المفروضةَ عليهِ كلَّ عامٍ، و يدفَعُها عن يدٍ صاغراً إلى الافرنجِ، كما دفعَها إليهمْ مِنْ قبلُ أبوهُ وجدُّهُ.

هذهِ حالُ دولِ الطوائفِ من التصارعِ والتحاربِ، لقد كانَ بأسهُمْ بينهمْ شديداً، فإذا رموا إخوانَهم فكأنَّ سهامَهم كانتْ تصيبُهم. وتكونُ

حصيلةُ ذلكَ أنَّ العربَ المتقاتلينَ يتساقطونَ صَرعى، وأعداؤهم الفرنجةُ ينظرونَ إلى دمائِهم وهي تسيلُ غزيرةً، فتنتشي نفوسُهم، وتنتعشُ آمالُهم باقترابِ اليوم المنشودِ، يوم استردادِ مُلْكِهِمُ القديمِ.

ظهور قوة المرابطينَ

على حين كانَ نجمُ العربِ الأندلسيينَ في أفولٍ منذُ ضحى القرنِ الخامسِ الهجريِّ، ولا سيما بعدَ امدٍ غيرِ طويلٍ من حكمِ ملوكِ الطوائفِ، كان نجمُ المسلمينَ المغاربةِ في صعودٍ. لقد ظهرت في صحراءِ افريقية العربية في المغربِ الأقصى جماعةٌ من القبائلِ التي عُرِفَ أهلُها بالملثمينَ أو المرابطينَ، وكانَ لها شأنٌ كبيرٌ في أحداثِ ذلكَ العصرِ.

لقد انطلقَتْ تلكَ القبائلُ مِنَ الصحراءِ المغربيةِ على نحوٍ يُذكرُ بانطلاقةِ الإسلامِ الكبرى من باطنِ

جزيرتِهمْ نحوَ العالَمِ. كانَتْ نفوسُهم مفعمةً بالحماسةِ، عامرةً بالإيمانِ، وما كانوا يفهمونَ لحياتِهم معنًى دونَ جهادٍ دائبٍ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ.

وما زالَ شأنُ المرابطينَ يعلو وقوتُهم تنمو حتى دانتْ لهمْ أكثرُ ربوعِ المغربِ الأقصى. ثم انطلقوا إلى المناطقِ الساحليةِ والسهولِ الواقعةِ جنوبيَّ جبالِ الأطلسِ، وتوغَلوا في اقليمِ الريف المُشرِفِ على البحرِ الأبيضِ المتوسطِ. ولم يبقَ عليهمْ في سبيلِ استكمالِ سيادتهِم على تلكَ الربوعِ الأفريقيةِ سوى الهيمنةِ على المضايقِ، وكانَتْ مدينتا سبتةُ وطنجةَ وما حولَهُما بمثابَةِ قاعدتينِ حربيتينِ حيويتينِ لأمنِ المغربِ الأقصى، كما كانتا معقلينِ أساسيينِ للجيوشِ المنطلقةِ إلى بلادِ الأندلسِ. وقد تمكنَ المرابطونَ أخيراً من فتحِ مدينتَي سبتةَ وطنجةَ المنيعتينِ، وباتوا

يتحكمونَ بمداخِلِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ من جهةِ الغربِ وعلى مشارفِ بحرِ الظلماتِ (الأطلسي). وقد تمَّ ذلكَ النصرُ المبينُ للمرابطينَ بمؤازرةٍ بحريةٍ من بعضِ سفُنِ المعتمدِ ملكِ دولةِ بني عبادٍ في اشبيليةَ بالأندلسِ. ويغلبُ على الظنِّ أنَّ هذه النجدةَ البحريةَ على ضآلتِها كانت فاتحةَ عهدٍ جديدٍ لتعاونٍ أشملَ وتحالفٍ أوثقَ بينَ مسلمي الأندلسِ ومسلمي المغربِ في قابلِ الأيامِ ولا سيَّما في معركةِ الزلاقةِ.

وهكذا استطاعَ المرابطونَ أن يبسُطوا سلطانَهم على تلكَ الربوعِ المغربيةِ ويوحِّدوها على نحوٍ لم يستطعْه الأمويونَ أنفسُهم من قبلُ، في عهدِ موسى ابن نصيرٍ.

وفي غمارِ هذه الأحداثِ التي كانَتْ تجتاحُ تلكَ البلاد الأفريقية، وما كانَ منْ أمرِ شوكةِ قبائلِ

البربرِ المتمردَةِ، كانَ ثمةَ رجلٌ من بينِ المرابطينَ اسمُه يوسفُ بنُ تاشفينَ أخذَ نجمُه يتألقُ في سماءِ المغربِ. ولعلَّهُ كانَ البطلَ المنشودَ الذي وهبَهُ اللهُ للعروبَةِ والإسلامِ، يعلي لواءَهُما و يشدُّ أزرَهُما.

لقد توافرتْ ليوسفَ بنِ تاشفينَ جملةٌ من الصفاتِ والمؤهلاتِ، تمكَّنَ بفضلِها أنْ يجمعَ حولَهُ شيوخَ قبائلِ المرابطينَ ومقاتليهِم على السواء، إذ تجلَّت فيه قوةُ الإيمانِ وشدةُ الورعِ وصلابةُ العقيدةِ، كما اتسمَ بالشجاعةِ الفائقةِ والبأسِ في الحربِ والاندفاعِ نحو الاستشهادِ. وكانَ مع ذلكَ زاهداً متقشفاً لا تستهويهِ الملذاتُ ولا تطرِفُ عينَه المسراتُ. حتى قيلَ إنَّهُ لم يكنْ يأكلَ سِوى خبزِ الشعيرِ ولا يشرَبُ سوى لبنِ الإبلِ.

وما من ريبٍ في أنَّ صفاتٍ كهذهِ كانَتْ

جديرةً بأنْ تؤلفَ القلوبَ حولَهُ وتؤهلَهُ لمرتبةِ الزعامةِ، فأذعنَ لهُ الجميعُ، وأسلسوا إليهِ قيادَهم، واتخذُوا منهُ قدوةً لأنفسِهم. وهذا ما يفسرُ لنا تلكَ الانتصاراتِ الباهرة التي حقَّقَها ابنُ تاشفينَ مع جيشِه، حتى غدا بحقٍّ المؤسسَ الحقيقيَّ لدولةِ المرابطينَ التي ما لبثَتْ أنْ غدَتْ دولةً كبرى في عهدِهِ، حينَ اصبحَتْ بلادُ الأندلسِ نفسُها تابعةً لها.

كانَ لا بدَّ لزعيمٍ من هذا الطرازِ، يقودُ جيشاً على هذا الغِرارِ، من أنْ يصرِفَ طاقتَهُ في سبيلِ توطيدِ دعائمِ الدينِ، وفي اعلاء كلمتِهِ، ومصارعةِ اعدائِهِ. وليسَ هذا بغريب، فدولةُ المرابطينَ إنَّما قامتْ على الجهادِ، حتى غدا هذا الجهادُ طابعَها المميزَ، ودستورَها العتيدَ.

أما الفرنجَةُ الذين كانوا في مناطق شتَّى من اسبانيا وفرنسا، أي في الأندلسِ وبلادِ الغالِ، فلم تكنْ تروقُهم هذهِ القوةُ الهائلةُ التي تجاورُهم وتهددُ مصالحَهم بل وجودَهم، ولهذا كانت سواحلُ الدولةِ المرابطيةِ عرضةً لأعمالِ القرصنةِ والتدميرِ من قِبَلِ سفنِ الإفرنجِ المغيرةِ بينَ الحينِ والحينِ تعيثُ فيها فساداً. ومن هنا كانَ لزاماً على زعامةِ المرابطينَ أن تفكرَ تفكيراً جدياً بأعدائِها المتربصينَ في مواجهةِ البرِّ الافريقيِّ.

وكان أكثرُ المطالبِ الحربيةِ إلحاحاً في هذا الطورِ طورِ اتساعِ المُلكِ وتوطيدِ دعائِمِهِ هو الالتفاتُ إلى إنشاءِ اسطولٍ بحريٍّ يكونُ خيرَ رافدٍ للقوةِ البريةِ الضاربةِ، وبذلكَ تتمُ إقامةُ درعٍ حصينةٍ لبلادِ العروبةِ والإسلامِ.

وهكذا وضعَتِ المقاديرُ مسلمي الأندلسِ ومسلمي المغربِ على صعيدٍ واحدٍ تُجاهَ العدوِّ المشتركِ.

وكما أنَّ ما يحدثُ في المغربِ كانَ يهمُّ الافرنجَ و يثيرُ قلقَهم فإنَّ ما كانَ يحدُثُ في الأندلسِ كانَ يؤلمُ المغاربةَ و يؤذي نفوسَهم.

إنَّ ما كانَ يجري من أحداثٍ ومحنٍ، ونكباتٍ وفتنٍ، داخلَ بلادِ الأندلسِ جديرٌ بأن تهلعَ لهُ قلوبُ المسلمينَ المخلصينَ. فالمعركةُ، أو ما كانَ يسميهِ الفرنجةُ بمعركةِ الاستردادِ، كانَتْ قد بدأتْ قبل سنينَ، وهي اليومَ تنذِرُ بشرٍّ مُستطيرٍ.

إنَّ حركةَ الجهادِ لدى المرابطينَ إنَّما كانتْ في مقابلِ حركةِ البعثِ النصراني لدى الاسبانِ، هذه

الحركةُ التي تعاظمَتْ حتى بلغَتْ أوجَ شدتِها في تلكَ الحملاتِ الصليبيةِ التي توجهَتْ نحو الشرقِ الإسلاميِّ بعدَ أمدٍ غير طويلٍ.

ذلكَ كانَ طابعَ الصراعِ في تلكَ القرونِ الوُسطى. إنهُ صراعٌ قوميٌّ دينيٌّ معاً، والقداسَةُ هي السمةُ المميزةُ لهذا الصراعِ في كلِّ حالٍ.

طغيانُ الفرنجةِ

بعدَ انفراطِ عقدِ الخلافةِ الأمويةِ في الأندلسِ وانتثارِها إلى دويلاتِ الطوائفِ، بدا للفرنجةِ أنَّ ساعةَ النصرِ قد أزفَتْ، وأنَّ الأوانَ قد حانَ لدحرِ العربِ إلى ما وراء الجزيرةِ. وهكذا راحَ أولئكَ الفرنجةُ يجمعونَ صفوفَهم ويحزمونَ أمورَهم. وقد استطاعوا في أواخرِ القرنِ العاشرِ الميلادي، الرابعِ الهجري، أن يوحدوا قواهُم بزعامةِ الملكِ (شانجه) الكبيرِ الذي أفلحَ في أن يجمعَ بينَ حُكامِ قتشالةَ ونبرة وليون وارغونه و برشلونةَ عن طريقِ المصاهراتِ. وأثمرَتْ جهودُ (شانجه) في إيجادِ قوةٍ كبرى يحسبُ

لها المسلمون حساباً كبيراً في أيِّ صدامٍ مُرتقبٍ. وقد مَضى في هذا الطريقِ فرديناند الأولُ ابنُ شانجه، ثم حفيدُه من بعدِهِ الفونسو السادسُ، وكانَ هذا بطلاً مغواراً ومقاتلاً عنيداً.

وكانَتْ أولى النتائجِ لتفاقُمِ خَطرِ تلكَ الحركةِ ازديادَ الضغطِ على ديارِ العروبةِ والإسلامِ في الأندلسِ، وتهجيرَ سكانِها واستردادَ البلادِ منهم. وقد تجلَّى ذلكَ واضحاً ودونَ مواربةٍ في قولِ فرديناند مخاطباً بعضَ حكامِ الأندلسِ المسلمينَ:

«إنَّما نطلبُ بلادَنا التي غلبتُمونا عليها قديماً في أولِ أمرِكُم، فقد سكنتموها ما قَضى لكُم، وها قد انتصرنا الآنَ عليكمُ برداءتِكُم، فارحلوا إلى عَدْوتكم واتركوا لنا بلادَنا، فلا خيرَ لكُم في سُكناكُم معنا

بعدَ اليومِ، ولن نرجِعَ عنكُم أو يحكُمَ اللهُ بَيننا وبينَكم».

ولم يجدْ مسلمو الأندلُسِ، وهمْ على تلكَ الحالِ من الضعفِ والتفككِ، مفراً من دفعِ الجزيةِ إلى زعيمِ النصرانيةِ، دفعاً لشرهِ واتقاءً لبطشِهِ. وهكذا كانتِ الأموالُ تَرِدُ إلى الفرنجةِ بصورةٍ منتظمةٍ من حُكامِ طليطلةَ واشبيليةَ وبطليوسَ وسرقسطةَ...

وكانت هذهِ الأموالُ تزيدُ في تعضيدِ جيوشِ الفرنجةِ وتجهيزِها، وتعمُرُ خزائِنَهم، وتقوي قُدُراتِهم على مواجهة العربِ والتحكمِ في مقدراتِهم، على حينِ كانَ التزامُ حكامِ الأندلسِ بدفعِ الجزيةِ الطائلةِ يُبهِظُ خزائِنَهم ويُثقلُ كواهلَهم ويزيدُ في افقارِهِم. ولمْ يكنْ من سبيلٍ إلى ذلكَ أمامَ الحكامِ

سِوى فرضِ المزيدِ من الضرائبِ على الرعيةِ وارهاقها، حتى ضجَّ الناسُ وضاقوا ذرعاً بما آلتْ إليهِ أحوالُ البلادِ.

وكثيراً ما كانَ زعماءُ الفرنجةِ يشتطونَ في طلبِ الجزيةِ و يشترطونَ فيها أنْ تكونَ ذهَباً عيناً ومن عيارٍ معلومٍ، فيدأبونَ على تَفحصِها ونقدِها، وقد يعمَدونَ إلى ردِّ بعضِها أو إلى رفضِها جملةً.

وحينَ يأنسُ الفرنجةُ في أنفسِهم قوةً، وفي نفوسِ العربِ ضعفاً، كانوا يتخطونَ قبضَ المالِ و يندفعونَ إلى أخذِ الأرضِ، وهذا ما حدثَ مراراً حينَ انقضوا على قلمريةَ وسرقسطةَ وطليطلةَ وبلنسيةَ وأيضاً اشبيليةَ. وتمخضَ جانبٌ من هذهِ الحملاتِ المتعددةِ عن توسعِ رقعةِ ممتلكاتِ الفرنجةِ وتقلصِ رقعةِ مناطقِ

العربِ، وكانَتْ حصيلةُ تلكَ الحروبِ المتلاحِقةِ انبساطَ دولة قشتالةَ الإسبانية واتساعَ مُلكِها شرقاً وغرباً.

وحينَ تسلمَ الفونسو زمامَ الأمورِ بعدَ أبيهِ فرديناند مضى في السياسةِ المعهودةِ التي انتهَجَها اسلافُه، وارتأى بعدَ تدبرٍ أنَّ مواجهةَ العربِ بصورةٍ شاملةٍ وحاسمةٍ مطمحٌ بعيدُ المنالِ، فاكتفى بأنْ تكونَ حروبُه مع مسلمي الأندلسِ حروبَ قلاعٍ وحصونٍ تجنباً لأيةِ خسارةٍ فادحةٍ من جندِهِ، وتفادياً لأيةِ نكسةٍ لجيشِهِ، إذْ لمْ يكنْ بمقدورِ الفونسو في الواقعِ أنْ يقتحِمَ ممالكَ الطوائف وما يكنفُها من قلاعٍ وحصونٍ، ويحققَ عليها نصراً حاسماً. وهكذا مضى في تلكَ السياسةِ البعيدةِ المدَى معتمداً على حربِ الاستنزافِ.

هذه السياسةُ، سياسةُ الاستنزافِ المدعومة بإرادةِ القتالِ، ارهقَتِ العربَ أيَّ إرهاقٍ، فقد اخذَ الفونسو يشتطُّ في طلبِ الجزيةِ و يضاعِفُ مقدارَها عاماً بعدَ عامٍ، حتى إذا عجزَ أصحابُها عنِ الدفعِ أو تمردوا على زعامةِ الفرنجةِ ضربَ عليهمْ الحصارَ وأرغمهمْ على قبولِ شروطِهِ إرغاماً، وكثيراً ما كانَ يصاحبُ ذلكَ أعمالٌ انتقاميةٌ وتصرفاتٌ تعسفيةٌ تنجلي عن إتلافِ الزرعِ وهلاكِ الضرعِ. ولا يكونُ أمامَ العربِ إزاءَ هذا الواقعِ سوى الاذعانِ والتسليمِ. حتَّى إنَّهُ كانَ مِنْ أثرِ هذهِ السياسةِ أنْ سقطتْ مدينةُ طليطلةَ في يدِ الفونسو السادسِ كما تسقطُ الثمرةُ الناضجةُ.

أمّا سقوطُ طليطلةَ سنةَ ٤٧٨هـ، ١٠٨٥م. فقد كانَ حدثاً بالغَ الأهميةِ بعيدَ الصدى، كما أنَّهُ بدا

للفرنجةِ والعربِ على السواء بمثابةِ نقطةِ تحولٍ في حركةِ الاستردادِ التي أخذَتْ تمضي في بلادِ الأندلسِ دونَ هوادةٍ. فمدينةُ طليطلةَ كانت فيما مضى عاصمة مملكةَ القوطِ في اسبانيا، حتى ساعة الفتحِ العربيِّ في عهدِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ الخليفةِ الأمويِّ في دمشقَ. ولهذا أحدثَ استردادُها فرحاً غامراً في نفوسِ الفرنجةِ، كما ارتفعَ في إثرِها قدْرُ الفونسو السادسِ في نظر معاصريهِ إلى مرتبةٍ رفيعةٍ، وأحيا ذلك آمالَهم في طردِ العربِ نهائياً من البلادِ واستخلاصِ جزيرةِ الأندلسِ منهم.

كذلكَ أرهبَ سقوطُ طليطلةَ سائرَ ملوكِ العربِ وفتَّ في عضدِهم، فبادَروا إلى خطبِ ود زعيمِ الفرنجةِ وتنافسوا في استرضائه. و يبدو أنّ هذا النجاحَ العَسكريَّ قد بعثَ في نفسِ الفونسو طموحَ

أجدادِه القديمَ وأغراهُ بأنْ يُعيدَ التجربةَ مع مدنٍ أندلسيةٍ أخرى. وإذا كانَ قد تمَّ لهُ اليومَ فتحُ طليطلةَ عاصمةِ القوطِ السالفةِ واتخذَها قاعدةَ مُلكهِ، فما الذي يحولُ دونَ استردادِهِ قرطبةَ عاصمةَ الخلافةِ الإسلاميةِ، وذاتَ الأمجادِ العظيمةِ..؟ كذلكَ إذا كانَ الفونسو قد أفلحَ في استنزافِ ثرَواتِ الملوكِ وتمكنَ من إذلالِهم، فلماذا لا يبادِرُ إلى اقتحامِ ديارِهم واحتلالِ ممالِكهم..؟

لقد ملأ الزهوُ نفسَ الفونسو بعد أنْ أحدثَ انتصارُهُ ذلكَ الدويَّ الكبيرَ، وقررَ أنْ يلقبَ نفسَهُ بلقبِ الأمبراطورِ، ومضى إلى أبعدَ من ذلكَ فاتخذَ لنفسِهِ أيضاً لقبَ «ملكِ الملتينِ» أيْ الملةِ النصرانيةِ والملةِ الإسلاميةِ. وحين أشارَ عليهِ أعوانُه بلبسِ التاجِ قالَ:

«لا أفعلُ حتى أطأ ذروةَ المُلكِ، وأحظَى بقرطبةَ واسطةِ السلكِ»، على حدِّ روايةِ ابنِ بسامٍ في كتابِهِ «الذخيرةَ في محاسِنِ أهلِ الجزيرةِ».

أما دولةُ بني عبادٍ في اشبيليةَ فكانتْ محطَّ آمالِ المسلمينَ في الأندلسِ لأنَّها كانَتْ أقوى دولِ الطوائفِ، كما كانَ زعيمُها المعتضدُ ومن بعدِهِ ابنُه المعتمدُ أقوى أولئكَ الملوكِ. ولكن يبدو أنَّ الأمرَ أصبحَ فوقَ طاقة مملكةِ اشبيليةَ أو سِواها، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ ملوكَ بني عبادٍ كانوا منهمكينَ في نزاعٍ مريرٍ مع مجاوريهم وأندادِهم من حكام دولِ الطوائفِ، بل انهم كانوا ــ فيما يبدو ــ لاهينَ عنِ الخطرِ الماحِقِ الذي كان يحدقُ ببلادِهم، ولذلكَ راحوا يطمعونَ في توسيعِ رقعةِ ملكِهم وملء خزائِنِهم بالمالِ، ثم يستسلمونَ بعدئذٍ إلى المتعِ والملذاتِ. وقد اضطرَّ

ملوكُ الدولةِ العباديةِ أنفسُهم في اشبيليةَ إلى دفعِ الجزيةِ الباهظةِ إلى الفونسو مقابلَ إطلاقِ أيديهم فيما حولَهمْ من ممالكِ الطوائفِ. حتى إنَّ زعماء اشبيليةَ راحوا يبررونَ هذا المسلكَ المهينَ بقولِهم:

«الحالُ مع العدوِّ قصمهُ الله سيئةٌ لا تحتاجُ إلى جلاءٍ ولا كشفٍ، معروفةٌ لا تفتقرُ إلى نعتٍ ولا وصفٍ. ومن لا يمكن مقاومته ومخاشنته، فليس إلاّ مُداراتُه وملايَنَتُه».

وقد بلغتِ الأمورُ حداً من السوءِ جعلتِ المعتمَدِ ابنَ عبادٍ نفسَه، على قوّتِهِ، يلجأ إلى عَقدِ حلفٍ معَ الفونسو ليستعينَ بهِ على إخوانِهِ في العروبةِ والإسلامِ. وتلكَ — لعمريَ — سياسةٌ خرقاء وسقطةٌ كبرى وخطيئةٌ قاتلةٌ. وقد كانَ لذلكَ الوضعِ الشاذِّ بعدَ حينٍ أسوأُ النتائج على العرب في الأندلس، بل على المعتمدِ نفسِه، وكانَ الثمنُ غالياً.

روح التصدي والمواجهة

أيقنَ مسلمو الأندلسِ أنَّهم باتوا مهددينَ بخطرٍ ما حقٍ، وأنَّ هلاكَهُم أمسى قريباً. فسلطانُ الفرنجةِ في انتشار، ومُلكُ العربِ في انحسار. لقَد وجدوا في سقوطِ طليطلةَ نذيرَ سوءٍ لأيامٍ قابلةٍ سودٍ، قد تكونُ أشدَّ هولاً. وقد عبَّرَ الشاعرُ عبدُ اللهِ بنُ فرجٍ اليَحْصُبيُّ عما كانَ ينتابُ الناسَ عهدئذٍ مِنْ مشاعرِ القلق والخطرِ، فبينَ أنَّ لسقوطِ طليطلةَ مغزًى خاصاً، نظراً إلى منزلتِها التاريخيةِ، وأيضاً لكونِ موقعِها الجغرافيِّ في وسطِ شبهِ الجزيرةِ الإيبريةِ، أيْ كأنَّ الثوبَ بدأ الآنَ ينسلُ من وسطِه، وكأنَّ الأندلسَ قدِ انشطرتْ، ومُلْكُ العربِ قد تصدعَ:

يا أهلَ أندلسٍ حُثوا مطيَّكُمُ
فما المُقامُ بِها إلاّ من الغلَطِ

الـثـوبُ يـنـسُـلُ مـن أَطْـرافِـهِ وأرى
ثَـوبَ الجـزيـرةِ مَـنْـسُـولاً مِنَ الوَسَطِ
ونحــنُ بــيــنَ عــدوٍ لا يُـفــارِقُـنـا
كيفَ البقاءُ مع الحَيّاتِ في سَفَطِ(١)

وأغلبُ الظنِّ أنَّ ملوكَ الأندلسِ باتوا يعضونَ أصابعَهم ندماً نتيجةَ وقوفِهم تُجاهَ هجمةِ الفرنجةِ الشرسةِ وِقفةَ المتفرجِ، وأدركَ بعضُهُم أنّ عليهم يقعُ وزرُ سقوطِ طليطلةَ، وما آلت إليهِ حالُ البلادِ من ضعفٍ وفوضى.

ولكنْ ما العملُ، إنَّ أطماعَ الفرنجةِ لا تقفُ عندَ حدٍّ، ولديهم من القوةِ والعزيمةِ ما يكفلُ لهمُ المضيَّ في استردادِ ممالكِ الأندلسِ ومدنِها، على حين

(١) السفط: الصندوق: و يريد بذلك استحالة بقاء العرب مع الفرنجة في بلاد الأندلس.

لا يملكُ ملوكُ الطوائفِ من الوسائلِ ما يمكنُهم من إيقافِ ذلكَ المدّ الطاغي.

وهكذا أخذتْ أنظارُ الأندلسيينَ تتجهُ الآنَ إلى خارجِ البلادِ، ونحوَ البرِّ الافريقيِّ، حيثُ يعيشُ في المغربِ إخوةٌ لهم وأبناءُ عمٍ. فالمرابطونَ باتوا قوةً كبيرةً قادرةً على نجدةِ الأندلسيين وانقاذِهم من الهلاكِ المحققِ.

وكانَ يعقبُ كلَّ هجمةٍ من هجَماتِ الفرنجةِ على مدنِ الأندلسِ نزوحُ الكثيرينَ من أهلِها قاصدينَ أحياناً إلى بر العَدوةِ، معتصمينَ بالمرابطينَ، نجاةً بأنفسِهم ودينِهم. وكانَ من بينِ النازحينَ اللائذينَ بالأميرِ يوسفَ بنِ تاشفينَ كثيرٌ من الفقهاءِ، ولم يعد هؤلاء يطيقونَ الحياةَ في الأندلسِ

بينَ جحيمِ أعدائِهِمُ الفرنجةِ واستهتارِ حكامِهِمُ العربِ. و يغلبُ على الظنِ أنهم كانوا يروونَ لابن تاشفين بتأثرٍ بالغٍ قصصاً رهيبةً ووقائعَ داميةً وحوادثَ مفجعةً مما كان يجري في بلادِ الأندلسِ.

كان ابنُ تاشفين يستقبلُ هؤلاءِ النازحينَ، الذينَ نجَوا بأنفسِهِم و بدينِهِم، وهم على تلكَ الحالِ من الأسى والفزعِ، فيجيرهُم و يكرمُ مثواهم، وهو يستمعُ باهتمامٍ بالغٍ إلى نداءاتِ الاستغاثةِ وصرخاتِ الاستنجادِ. ولا ريبَ في أنَّ ذلك القائدَ الباسلَ والزعيمَ الورعَ كانَ يمتلىء غيظاً و يستبدُّ به السخطُ تُجاهَ ما يحيقُ بإخوانِهِ في الدينِ من أهوالٍ على يدِ الطغاةِ المسيحيينَ. وطبيعيٌّ لدى رجلٍ مُجاهدٍ من هذا الطرازِ أنْ تغتليَ نفسُه حقداً على الأعداءِ، وحميةً لاعلاءِ كلمةِ اللهِ.

أما ملوكُ الأندلسِ فقد باتوا على مثلِ اليقينِ أنَّ بقاءَ عروشِهم أصبحَ موضعَ شكٍ كبيرٍ، وأن مستقبلَ أيامِهم باتَ مظلماً. لقد أدركوا أخيراً أنهم لعبوا بالنارِ كثيراً، فلم يحصدوا غيرَ الشؤمِ، ولمْ يَبُوءوا إلاّ بالخذلانِ. كانوا يدركونَ أنّهم لا قبلَ لهم بعدوٍّ متجبّرٍ متغطرسٍ، وأنّ مصيرَهم أصبحَ في مهبِّ الريحِ.

لقد لاحت لهم فكرةُ الاستنجادِ بجيشِ المرابطينَ والاستغاثةِ بيوسفَ بنِ تاشفين. ولكنهُم كانوا في كلِّ حينٍ يستبعدونَ هذهِ الفكرةِ، وفي رؤوسِهِم أحلامٌ وأوهامٌ حولَ احتمالِ استمرارِهم بالحُكمِ، ولو كان الثمنُ مزيداً من دفعِ الجزيةِ و بذلِ ماءِ الوجهِ.

ولكنْ هل كانَ أعلاجُ الفرنجةِ يرضَوْنَ عن الممالكِ والمدائنِ بديلاً..؟

لقد بلغَ الفونسو من القحةِ والغطرسةِ والتحدي مبلغاً جاوزَ حدودَ الطاقةِ، فأمعنَ في التجني واشتطَّ في الطلبِ. من ذلك أنهُ بعثَ إلى المعتمدِ بنِ عبادٍ ملكِ اشبيليةَ طالباً منه أنْ تدخلَ زوجتُه إلى جامعِ قرطبةَ لتلدَ فيهِ من حملٍ كان بها. وقد أشارَ عليها بذلكَ بعضُ القسيسينَ والأساقفةِ تبركاً بمكانِ كنيسةٍ كانت قائمةً في الجانبِ الغربيِّ من الجامعِ، واقترحَ الفونسو أن تحلَّ امرأتُه وصحبُها في ضاحيةِ الزهراءِ غربيَّ مدينةِ قرطبةَ، فتختلفَ منها إلى الجامعِ المذكورِ، حتى تتمَ الولادةُ بينَ طيبِ نسيمِ الزهراءِ وفضيلةِ ذلكَ الموضعِ الموصوفِ من الجامعِ.

وكبُرَ على المعتمدِ هذا الطلبُ، ولم يسَعْهُ سوى أن يرفضَه بإباءٍ. وكانَ هذا يعني لدى الفونسو المتجبرِ جنوحاً من المعتمدِ إلى التحدي، فكظمَ غيظَه وأضمَر في نفسِهِ شراً.

وحدثَ أيضاً بعدَ حينٍ قصيرٍ احتكاكٌ بينَ الطرفينِ المتعادِيين، أعقبَتْه أزمةٌ حادةٌ. فقد وصلَ موفدُ الفونسو لقبضِ الجزيةِ السنويةِ المتفقِ عليها معَ المعتمدِ بنِ عبادٍ، وكانَ هذا يهودياً يُدعى ابنَ شاليبَ، ويصحبُهُ عددٌ من رؤساءِ القشتاليينَ. وقد حلُّوا بأحدِ أبوابِ اشبيليةَ، وضربُوا خيامَهم بجوارِهِ. فبعثَ المعتمدُ إليهم بالمالِ المطلوبِ مع جماعةٍ من وجوهِ دولتِه. ويبدو أنَّ اليهوديّ تفحصَ المالَ فوجدَ أنَّ بعضَه من معدنٍ خسيسٍ فرفضَ أن يتسلَّمَه وقالَ:

«واللهِ لا أخذتُ هذا العيارَ»، وراحَ يهددُ ويتوعدُ. وحينَ أُعلِمَ المعتمدُ بما كانَ، استبدَّ بهِ الغضبُ وأمرَ بصلبِ اليهوديِّ وسجنِ النصارى. فقالَ اليهوديُّ متوسلاً:

« لا تفعلْ، وأنا أفتدى منكَ بزنتي مالاً » فأجابَهُ المعتمدُ :

« واللهِ لو اعطيتَني العَدوةَ والأندلسَ ما قبلتُهما منكَ » .

أمّا الفونسو فقد تملكَه الغيظُ، وكتبَ إلى المعتمدِ يطالبُه بإطلاقِ سَراحِ المعتقلينَ، فساوَمه المعتمدُ عليهم واشترطَ أنْ يستردَّ حِصْنَ (المدوّر) في مقابلِ ذلكَ، فلم يَجِد الفونسو بُدّاً من الإذعانِ، إلاّ أنَّهُ اقسمَ لينتقمنَّ شرَّ انتقامٍ. وآلى على نفسِهِ أنْ يثأرَ لمبعوثِهِ القتيلِ، وأنْ يسوقَ لذلكَ جنوداً بعددِ شعرِ رأسِ ذلكَ اليهوديِّ حتى يصلَ إلى بحرِ الزقاقِ.

وسرعانَ ما برَّ الطاغيةُ الفونسو بقَسَمِهِ، واتخذَ من ذلك الحادث ذريعةً للبطشِ. فأطلقَ لنزواتِهِ

العنانَ وصبَّ نيرانَ حقدِهِ على قرى المسلمينَ ، وراحَ يعملُ فيهم أيديَ التقتيلِ، وفي ديارِهِم معاولَ التدميرِ. وقد استمرَّ في زحفِهِ حتى بلغَ جبلَ طارقٍ، ثم انعطفَ إلى اشبيليةَ عاصِمَةِ دولةِ العباديينَ، فحاصرَها ثلاثةَ أيامٍ.

وانتشرَ القشتاليونَ يعيثونَ في الأرضِ فساداً، فخرَّبوا إقليمَ شذونةَ وأغاروا على مُرْسِيةَ وغرناطةَ وسرقسطةَ، حتى دبَّ الذعرُ في قلوبِ العربِ وأيقنوا أنهُم قد أَوْفَوْا على الهلاكِ.

وفي قرطبةَ تنادى رؤوسُ القومِ، وفيهم عددٌ من الأئمةِ والفقهاءِ الى إجتماعٍ فوقَ العادةِ للتداولِ في الوضعِ الخطيرِ الذي تردّتْ فيه البلادُ. وقالَ بعضُ المجتمعينَ:

ــ «هذهِ مدائنُ الأندلسِ قد غلبَ عليها

الإفرنجُ، ولم يبقَ منها إلاّ القليلُ. وإن استمرتِ الأحوالُ على ما نرى عادتْ نصرانيةً كما كانت».

ثم سارَ المجتمعونَ إلى القاضي عبدِالله ِبنِ أدهمَ، وكانَ من أعقلِ القومِ، وأرجحِهِم عقلاً، وأسدِّهم رأياً:

ــ «ألا تنظرُ ما فيهِ المسلمونَ من الصَّغارِ والذِّلةِ، واعطائِهِمُ الجزيةَ إلى الفرنجةِ، بعد أنْ كانوا يأخذونَها منهمْ»، ثم قالوا للقاضي القرطبي:

ــ «لقد تدبْرنا رأياً إنْ شئتَ عرضناهُ عليكَ؟

فقال القاضي ابنُ أدهمَ:

ــ «وما هو هذا الرأيُ؟ قالوا:

ــ «نكتبُ إلى عربِ افريقيةَ ونعلمُهُم إنْ

وصلوا إلينا قاسمناهُم أموالنا، وخرجْنا معهم مُجاهدينَ في سبيلِ اللهِ)). فقالَ:

ـ ((اخشى عاقبةَ هذا الأمرِ، ولكنَّ المرابطينَ أقربُ إلينا وأصلحُ حالاً)) فقالوا:

ـ ((اكتبُ إلى يوسفَ بنِ تاشفين، وارغبْ إليهِ أنْ يدخلَ إلينا بنفسِهِ، أو يرسلَ إلينا قائداً من قوادِهِ))، وعندئذٍ قالَ ابنُ ادهمَ وهو يهزُّ برأسِهِ مقتنِعاً بصوابِ ما عرضوا:

ـ ((قد أشرتُم برأيٍ فيهِ السدادُ)).

ثم قدِمَ المعتمدُ من اشبيليةَ متفقداً أحوالَ قرطبةَ، فدخلَ عليهِ القاضي وأعلمَهُ بما دارَ بينَهُ وبينَ وجوهِ المدينةِ، وما استقرَّ عليه رأيُهم. فاستحسنَ المعتمدُ ما كانَ من رأيٍ، ثم قالَ للقاضي ابنِ ادهمَ:

ــ «نِعمَ ما أشاروا بِهِ، وأنتَ رسولي إلى يوسفَ ابنِ تاشفينَ».

فتظاهرَ القاضي بالتمنعِ، والتمسَ من مليكِهِ أنْ يعفيَهُ من هذهِ المهمةِ. وكانَ قصدُهُ من ذلكَ أنْ يقويَ عزمَهُ على المضيِّ في هذا الأمرِ. فقال لهُ المعتمدُ برغبةٍ وإصرارٍ:

ــ «لا أجدُ لهذهِ المهمةِ الجليلةِ غيرَكَ. فوطِّنْ نفسَكَ على السفرِ وتوكلْ على اللهِ».

و يغلبُ على الظنِّ أنَّ فكرةَ الاستعانةِ بالمرابطينَ لدرءِ خطرِ الفرنجةِ كانتْ تجولُ بقوةٍ في ذهنِ المعتمدِ ابنِ عبادٍ، ولا سيما حينَ أخذَتْ جيوشُ الفونسو تغيرُ على التخوم والجهاتِ، وتعيثُ وتخرِّبُ، وتهدِّدُ وتتوعَدُ، حتى إنّها حاصرَتْ قصرَ المعتمدِ نفسِهِ في اشبيليةَ. أجَلْ، كانَ من الطبيعيِّ أنْ تنبتَ هذهِ

الفكرةُ في رأسِ المعتمدِ كما نبتَتْ في رؤوسِ الناسِ، بعد أن اتضحَ لكلِّ ذي عينينِ أنَّهُ لا قِبَلَ لملوكِ الطوائفِ بالتصدّي لهجماتِ الفرنجةِ المتصاعدةِ. وهكذا اتجهتْ أنظارُ الجميعِ إلى افريقيةَ يرقبونَ منها الخلاصَ.

ولعلَّ ما عجَّلَ في ترسيخِ هذهِ السياسةِ الجديدةِ لدى المعتمدِ شعورُهُ بالندمِ على ما كانَ منْهُ تُجاهَ الفرنجَةِ من تحالفٍ، حينَ أطلقَ يدَ الفونسو في احتلالِ طليطلةَ، مقابلَ اطلاقِ هذا يدَ المعتمدِ تجاهَ بعضِ خصومِهِ. و يغلبُ على الظنِّ أنّ الشعورَ بالإثمِ كانَ يلاحِقُ ذلكَ الفارسَ العربيَّ فيجسِّمُ لهُ فداحةَ تبعَتِهِ وهولَ فعلتِهِ. وكانَ ذلكَ يؤرقُهُ و يقضُّ مضجَعَهُ ويجعلَهُ في همٍّ مُقيم. وحينَ آوى إلى فراشِهِ ذاتَ ليلةٍ لم يجدِ الرقادُ إلى عينيهِ سبيلاً، فراحَ

يتقلبُ من طرفٍ إلى طرف، وكأنَّهُ يبيتُ على شوكٍ. ثم استدعى ولدَهُ ووليَ عهدِهِ «الرشيد»، وأفضى إليهِ بهمِّهِ، وراحَ يقولُ بمرارةٍ وأسى:

— «أنا في هذه الأندلسِ غريبٌ بينَ بحرٍ مظلمٍ، وعدوٍّ مجرمٍ. وليسَ لنا وليٌّ ولا ناصرٌ إلاّ اللهُ تعالى. وإنّ اخوانَنا وجيرانَنا ملوكَ الأندلسِ ليسَ فيهِمْ حيلةٌ،أو يرجى منهم نُصّرةٌ إنْ نزلَ بنا مصابٌ أو نالَنا عدوٌّ. وهذا اللعينُ الأذفونش (الفونسو) قد أخذَ طليطلةَ من ابنِ ذي النونِ بعدَ سبعِ سنينَ، فعادَتْ دارَ كفرٍ،وها هوَ قد رفعَ رأسَهُ إلينا، وإنْ نزلَ علينا كما نزلَ بطليطلةَ فإنَّهُ ما يرفعُ عنا حتى يأخذَ اشبيليةَ. ونرى من الرأي ان نبعثَ إلى هذهِ الصحراءِ وملكِ العَدْوةِ نستدعيهِ للجواز(١)، ليدفع

(١) أي اجتياز البحر من افريقية الى الأندلس.

عنا هذا الكلبَ اللعينَ، إذ لا قدرةَ لنا على ذلك بأنفسِنا. فقد تلفَ لحاؤنا (١)، وتدبَّرتْ بل تبرَّدَتْ أجنادُنا، وأبغضتنا العامةُ والخاصةُ.. أيْ بني، واللهِ لا يُسمعُ عني أبداً أني أعَدْتُ الأندلسَ دارَ كفرٍ، ولا تركتُها للنصارى، فتقومُ عليّ اللعنةُ في منابرِ الإسلامِ. وإنّ اللهَ لم يلهِمْني إلاّ هذا، وفيهِ خيرٌ وصلاحٌ لنا ولكافةِ المسلمينَ».

وكانَ الفونسو قد أمعنَ في غيهِ واشتدَّ في طغيانِهِ، بعدَ أنْ تيقنَ من ضعفِ العربِ أمامَهُ، فبدا وكأنَّهُ لا قِبَلَ لأحدٍ بردِّهِ. وقد بلغَ به الصلفُ والاستكبارُ أنْ كتبَ إلى المعتمدِ هازئاً مستهيناً:

— «لقد كثر في مجلسي الذبابُ، لطولِ مُقامي، واشتدَّ عليّ الحرُّ. فأتحِفني من قصرِكَ بمروحةٍ أروِّحُ

(١) لحاء الشجرة: قشرها، و يريد بذلك غلبة الضعف والانهاك على الأندلسيين.

بها على نفسي، وأطردُ بها الذبابَ عن وجهي...»

فأطرقَ ابنُ عبادٍ ملياً وهو يرى إلى ما بلغَه هذا العلجُ المتغطرسُ من صلفٍ، والذي كانَ دأبُهُ التحرشَ بالمسلمينَ واستفزازَهم. ثم تناولَ الفارسُ ريشتَهُ، والحميَّةُ العربيةُ تغتلي في نفسِهِ، وكتبَ إلى الفونسو في ظهرِ الرقعةِ بشممٍ:

ـ «قرأتُ كتابَك، وعلمتُ خُيلاءكَ وإعجابَك. وسأنظرُ في مراوحَ من الجلدِ اللمَطيةِ (الإفريقية) تُروِّحُ منكَ لا تروِّحُ عليكَ، إن شاءَ اللهُ تعالى».

ولما بلغتِ الرقعةُ قصرَ الفونسو وقرِئتْ عليهِ وجَمَ وجومَ من بوغِتَ بأمرٍ لم يكنْ يخطرُ لهُ ببالٍ. فليستِ المراوحُ التي عناها المعتمدُ سوى تلكَ التروسِ الجلديةِ

الصلبةِ التي اشتهرتْ صناعتُها في افريقية. وفي هذا تلميحٌ إلى اعتزامِهِ التحالُفَ مع المرابطينَ.

وشاعَ في ربوعِ بني عبادٍ وفي سائرِ ربوعِ ممالِك الأندلسِ ما قرَّ عليهِ رأيُ المعتمدِ من الاستعانَةِ بزعيمِ المرابطينَ لإنقاذِ البلادِ من قبضةِ الفرنجةِ.

وكانَ ثمَّةَ لبعضِ حكامِ الطوائفِ رأيٌ مغايرٌ، فلم يرقْهُمُ انفرادُ المعتمدِ بهذهِ الخطوةِ الجريئةِ، وخافوا مغبةَ مجيء المرابطينَ إلى ديارِهم، وإزاحتِهم إياهُم عنْ مُلكِهِم. فمنهم مَنْ كاتَبَه مُحذِّراً، ومنهمْ من كلَّمَهُ منذراً. وكانَ مما قالوهُ لهُ:

ــ «إنَّ الملكَ عقيمٌ، والسيفانِ لا يجتمعان في غمدٍ».

وقد لقيَ المعتمدُ في أشبيليةَ نفسِها مَنْ يعارضُ رأيَهُ، بل إنَّ ولدَهُ نفسَه «الرشيدَ» وقفَ منهُ موقفَ

المنذِرِ المُحذِّرِ مبيناً لهُ أنَّه في هذا الأمرِ كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنارِ. وحينَ طالَ الجدالُ وكثُر الكلامُ، لم يَجدِ المعتمدُ بُدّاً من اتخاذِ قرارِهِ الحازِمِ تجاهَ امرينِ خطيرينِ، أحلاهُما مرٌّ. وعندئذٍ أعلنَ ما استقرَ عليهِ رأيُهُ بعبارةٍ صريحةٍ كانَ لها دويٌّ بعيدٌ:

ــ «لأنْ أرعى الجِمالَ عندَ ابنِ تاشفين، خيرٌ من أنْ أرعى الخنازيرَ عندَ الأذفونش (الفونسو). ولأن يغدُرَ بي ابنُ تاشفين معَ رضاءِ اللهِ، خيرٌ من أن يفيَ لي الأذفونش مع سخطِهِ تعالى».

وفحوى ذلكَ أن المعتمدَ يؤثرُ، إذا كان عليهِ أنْ يختارَ، ووقعَ أسيراً، أنْ يصيرَ إلى صحراءِ المغربِ ويرعى لابنِ تاشفين إبلَهُ راضياً مرضياً، لما في ذلك من صلاحِ قومِهِ ودينِه.. على أنْ يبقى تابعاً لألفونسو أو

عبداً له، يرعى له خنازيرَهُ في قشتاله، مُغضِباً في ذلك ربَّهُ وخائناً لضميرِهِ.

وحينَ سمعَ المعارضونَ قولةَ المعتمدِ ولمسوا منهُ العزمَ على المضيِّ فيما استقرَّ عليهِ رأيُهُ، أمسكوا عن لومِهِ وعاهدوهُ على السيرِ وراءهَ. والخيرُ فيما اختارَه اللهُ.

وبدا جلياً أنَّ المعتمدَ بنَ عبادٍ قد انعطفَ بسياستِهِ الخارجيَّةِ انعطافاً أساسياً، وتحولَ عن مألوفِ مسلكِهِ العامِّ تحولاً جذرياً. وكانَ قرارٌ لا محيدَ عنه بعدَ أنِ اختارَ التحالُفَ مع إحدى القوتينِ الكبيرتينِ، وإذ عمدَ إلى قطعِ الجسورِ بينَهُ وبينَ الفونسو وعزمَ على إحراقِ سفنِهِ معَهُ، كما تجلَّى ذلكَ من رسائِله الأخيرةِ ومن أحاديثِهِ مع ولدِهِ وكبراءِ

دولتِه، لم يعدْ ثمَّةَ من سبيلٍ سوى الاستسلامِ لمشيئةِ المرابطينَ.

نفير الحرب

رأى ملوكُ الطوائفِ أنّ من الحكمةِ إسنادَ الأمرِ في هذهِ المرحلةِ الخطيرةِ إلى المعتمدِ بنِ عبادٍ لأنه أشجعُ القومِ، وأوسعُهم مُلكاً، وأكثرُهم تمرساً بشؤون السياسةِ والحرب. وهكذا تلقّى أميرُ المسلمين كتاباً من الأندلسِ باسمِ ملوكِها يقولون له فيه:

«سلامٌ على أمير المسلمين يوسفَ بنِ تاشفين.

«أمّا بعدُ، فإنّكَ إنْ أعرضتَ عنا نُسبْتَ إلى كرمٍ، ولم تُنسبْ إلى عجزٍ. وإنْ أجبنا داعيَكَ نُسبنا

إلى عقلٍ ولم نُنسب إلى وَهْنٍ. وقد اخترْنا لأنفسنا أجملَ نسبتينا، فاختْر لنفسِكَ اكرمَ نسبتيكَ. فإنكَ في المحلِ الذي يجب ألاّ تُسبقَ فيه إلى مكرُمةٍ. وإن في استبقائكَ ذوي البيوتِ، ما شئتِ من دوامٍ لأمركَ وثبوتٍ والسلام».

ثم وصل الكتابُ إلى يوسفَ بنِ تاشفينَ مع تُحفٍ وهدايا. وكانَ يوسفُ من بربرِ افريقيا، ولم يكنْ يتقنُ العربيةَ إلاّ أنَّه كان مُلمّا بها. وهو ذكي الطبعِ، سريعُ الفهمِ. وكان له كاتبٌ يعرفُ اللغتين العربيةَ والمرابطية. فقال له: «أيُّها الملكُ، هذا الكتابُ من ملوكِ الأندلسِ، يُعظِّمونكَ فيه، ويُعرِّفونك أنّهمْ أهلُ دعوتِكَ، وتحتَ طاعتكَ، ويلتمسون منكَ ألاّ تجعلَهم في منزلةِ الأعادي، فإنهم مسلمون، وكفى بهم مَنْ وراءهَم من الأعادي الكُفّار».

فقال الأميرُ لكاتبه:

ــ «فما ترى أنت»؟. فقال الكاتبُ:

ــ «أيها الملكُ إنّ تاجَ المُلكِ وبهجتَه شاهدُه الذي لا يُرد، فإنه خليقٌ بما حَصَلَ في يدِهِ من المُلكِ والمال أنْ يعفوَ إذا استُعفي، وأنْ يَهَبَ إذا استُوْهِبَ. وكلّما وَهَبَ جليلاً جزيلاً كان ذلك لقدْرِهِ أعظمَ. فإذا عَظُمَ قَدْرُهُ تأصَّلَ ملكُه. وإذا تأصَّلَ مُلكُه تشرَّفَ الناسُ بطاعتِهِ. وإذا كانت طاعتُهُ شرفاً جاءهُ الناسُ، ولم يتجشمِ المشقةَ إليهم. واعلمْ أنّ بعضَ الملوكِ والحكماءِ الأكابر، البصراءِ بطريق تحصيلِ المُلكِ قال: مَنْ جاد ساد، ومَنْ ساد قاد، ومَنْ قاد مَلَكَ البلاد».

فاستحسنَ أميرُ المسلمين هذا الكلامَ. ثم أخذ يُملي بلغته على الكاتب ما ارتآه، فكان كتابُه هذا مجيباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من يوسف بنِ تاشفين، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه.

تحيةُ مَنْ سالمَكم وسلَّم عليكم. وإنكم مما في أيديكم من الملكِ في أوسعِ اباحةٍ، مخصوصين منا بأكرمِ ايثارٍ وسماحة. فاستديموا وفاءنَا بوفائكم، واستصلحوا اخاءنَا باصلاحِ اخائكم، والله وليُ التوفيق لنا ولكم. والسلام»

فأرسلَ ابنُ تاشفينَ كتابَهُ مصحوباً بما هو لائقٌ من الهدايا والتحفِ مثل دَرَقِ اللمطِ (تروس الجلد)(١) التي لا توجد إلا في بلادِهِ. وأُنفَذَ ذلك إلى الأندلس.

---

(١) الدرق بفتحِ الدال والراء مفردها درقة، وهي ترس من الجلد الثخين ليس فيه خشب. وهذا نوع من السلاح مشهور عند فرسان الأفارقة.

فلمّا تلقّى الأمراءُ ذلك وقرؤوا كتابَ ابنِ تاشفينَ فرحوا به وعظّموه، وسُرّوا بولايتِهِ، وتقوَّتْ نفوسُهمْ بدفعِ الفرنجِ عنهم. وأزمعوا إنْ رأوا من الإفرنج ما يَريبهم، فلسوف يرسلون إلى يوسفَ ليعبُرَ إليهم، أو يمدَّهم بما شاؤوا من العَوْن.

ولم يشأ المعتمدُ بنُ عبادٍ أنْ يُضيعَ الوقتَ، بعد أنِ اطمأنت نفسُهُ إلى استعدادِ ابنِ تاشفينَ للوقوفِ معه ضدَّ الفرنجة. وأيقن أنَّ هذا الحلفَ الجديدَ عملٌ فذٌّ لم يسبق له مثيلٌ، وأنّ ميزانَ القوى بعد الآن جديرٌ بأن يختلَ لصالحِ العربِ والمسلمينَ، وفي الاتحاد قوة.

* * *

وبعثَ المعتمدُ إلى المتوكلِ بنِ الأفطسِ أميرِ

بطليوس وإلى ابنِ حبوسِ الصهناجي أميرِ غرناطة ليرسلَ كلٌّ واحد منهما كبيرَ قضاتِه، كما استحضَرَ ابا بكرِ بنَ أدهَمَ قاضي الجماعَةِ في قرطبةَ الذي كان لهُ شأنٌ في تقويَةِ تيارِ الاستنجادِ بالمرابطينَ. فلمّا اجتمعَ القضاةُ عندَه في اشبيليةَ أمرَ بأن ينضمَ إليهم واحدٌ من كبارِ أعوانِه، وهو أبو بكرِ بنُ زيدونَ نجلُ الشاعرِ الأندلسيِّ الكبيرِ. وأبلغَ هؤلاءِ الأربعةَ أنّهم رسلُهُ إلى أميرِ المسلمينَ يوسفَ بنِ تاشفين.

وحين علمَ ابنُ تاشفين بأن الوفدَ الأندلسيَّ قاصدٌ إليهِ على هذا المستوى الرفيع تهيأ لدراسةِ الأمرِ من الوجهةِ السياسيةِ والعَسكريةِ مع أركانِ دولتِه، كيلا تكونَ هناكَ ثُغرةٌ بينَ المتحالفينَ في المستقبلِ. وقد تشاورَ مع كاتبه عبدِ الرحمنِ بنِ اسبط، وكان اندلسيَّ الأصلِ يعرفُ تلكَ البلادِ، فأبانَ لَهُ مخاطِر

تلكَ الحربِ، ولا سيما أنّ أكثرَ بلادِ الأندلسِ باتتْ في يد الافرنجِ، والجزيرةُ نفسُها وعرةُ المسالكِ كثيرةُ الشعابِ. ثم أثارَ مع الأميرِ احتمالَ نقضِ المعتمدِ للعهودِ ولجوئهِ إلى قطعِ طريقِ العودةِ على الحملةِ المغربيةِ عبرَ بحرِ الزقاقِ، وحينئذٍ يغدو جيشُ ابنِ تاشفين بينَ ناريْنِ و يتعرضُ للهلاكِ. واقترحَ على الأميرِ أنْ يطالبَ المعتمدَ بمِنْطَقَة الجزيرةِ الخضراءِ ليجعلَ منها منطلقاً لجندِهِ نحو الشمالِ ومقراً لعتادِهِم، كما تكونُ في الوقتِ نفسِهِ قاعدةً لعبورِ المرابطين وعودتِهِم إلى ديارِهِم متى شاؤوا.

فاستحسنَ المجتمعونَ هذا الرأي ووجدوا فيه تمكيناً لجيشِهِم وضماناً لسلامتِهِ، إذ كان المرابطونَ قوماً صحراويينَ ولم يحاربوا قط في أرضٍ غيرِ منبسطةٍ، كما لمْ يعاينوا من قبلُ عدواً من الفرنجةِ،

ومنَ الطبيعيِّ في مثلِ هذهِ الخطوةِ لدى قادتِهم أنْ يتحسبوا وأنْ يتهيبوا.

على أنّ غالبيةَ المرابطينَ وفقهاءَهم كانوا يحبذونَ الجهادَ وتميلُ نفوسُهم إلى الغزوِ، ورؤيةِ تلكَ البلادِ الجميلةِ الممتدةِ وراءَ البحرِ.

وحينَ تمت مناقشةُ الأمرِ من وجوهِهِ، طلبَ إليهم أميرُهم رأيَهم فيما ينوي عَمَلهُ من نجدةِ اخوانِهِ في جزيرةِ الأندلُسِ، فقالوا له:

ــ «أيّدَ اللهُ أميرَ المسلمينَ. أمّا ما ذكرتُم من استغاثَةِ هذا الرجلِ (المعتمد) بكم، فواجبٌ على كلِّ مسلمٍ يؤمنُ باللهِ ورسولِهِ، اغاثَةُ أخيهِ المسلمِ».

وأعلمَ الفقهاءُ اميرَهم أيضاً ان مجاهدةَ الافرنجِ فريضةٌ عليهِ.

ثم جاءَ جوابُ المعتمدِ متضمناً قبولَهُ تسليمَ الجزيرةِ الخضراءِ، وكان يحكمُها ابنُهُ ووليُّ عهدِهِ «الراضي». فأمرَ هذا بإخلائِها وانسحب منها لصالحِ المغاربةِ.

والآنَ، وقد تهيأتْ أسبابُ الحملةِ، وسارتِ الأمورُ الممهدةُ لها وَفقَ ما يرغبُ ابنُ عبادٍ وابنُ تاشفين، فقد حانَ وقتُ العملِ، وغدتِ الاستعداداتُ للحربِ على قدمٍ وساقٍ.

العبور

حينَ شاعَ نبأ اعتزامِ زعيمِ المرابطينَ إنجادَ إخوانِهم في الأندلسِ، عمَّ الفرحُ والابتهاجُ، وتفاءلَ الناسُ بالخيرِ. وسُرعانَ ما علتْ صيحةُ الجهادِ وراحَ صداها يترددُ في ربوعِ المغربِ والأندلسِ. وسرتْ بينَ المسلمينَ حماسةُ القتالِ، وغمرَ العربَ شعورٌ عارمٌ بالثقةِ والتفاؤلِ. وأقبلتِ الوفودُ المجاهدةُ من الصحراءِ وبلادِ القِبلةِ والزابِ، ولم تتخلفْ قبيلةٌ عن المساهمَةِ في هذهِ الحركةِ المباركةِ الكبرى. وكان لذلكَ كلِّهِ في افريقية مغزىً بعيدٌ، إذ اجتمعتِ

القبائلُ في ظلِّ المرابطينَ، وتوحَّدَ شملُها تحتَ لواءِ يوسفَ بنِ تاشفين، والتفَّ الجميعُ حولَ هدفٍ واحدٍ، وهو الجهادُ في سبيلِ اللهِ واعلاءِ كلمتِهِ.

وعلى صعيدٍ آخرَ، بدا للناسِ كأنَّ المعجزةَ قد تحققتْ، فاجتمعَ شملُ أهلِ الأندلسِ بعد تفرقٍ، وتوحدتْ جهودُهم بعد طولِ تحاسدٍ. وكأنَّ التاريخ يصلُ ما انقطعَ من سابقِ عهدِه، منذُ وفاةِ الحاكمِ الفذِّ المنصور بنِ أبي عامرٍ، حينَ كانَ المجتمعُ الأندلسيُّ أشبَهَ بمعسكرٍ كبيرٍ يعجُّ بالمجاهدينَ من كلِّ فجٍّ. واليومَ، حينَ لم يكنْ في وسعِ الأندلسيينَ أنْ يوحدوا أنفسَهم ويجمعوا أمرَهم، كان لا بُدَّ من قوةٍ خارجيةٍ قادرةٍ على تحقيقِ ذلك، فكانَ هذا البنيانُ المرصوصُ.

أخذَ الثغرانِ الافريقيان (سبتة وطنجة)

المشرفانِ على بحرِ الزقاقِ في مواجهةِ جبلِ طارقٍ يعجان بالحركةِ، وقوافلُ الابلِ كانت تروحُ وتغدو محملةً بالمُؤَنِ والعتادِ، على حينِ كانت جموعُ المقاتلينَ تتدفقُ نحوَ السفنِ الكبيرةِ التي كانت تنتظرهُم على الشاطىءِ. وكانت هذهِ السفنُ الضخمةُ تشكلُ القوةَ البحريةَ المتعاظمَةَ التي شرعَ يوسفُ بنُ تاشفين في انشائِها لمواجَهِ اسطولِ الفرنجةِ الذي كانَ من قبلُ يصولُ ويجولُ في هذه المِنْطَقَةِ.

ومن سبتةَ الميناءِ المغربيِّ الحصينِ والذي أصبحَ في حوزةِ العربِ بعد أنْ طالَ بقاؤُه في قبضةِ الفرنجِ، من هذا المكانِ المنيعِ في الرأسِ الافريقي، وكما حدثَ قبلَ نحوِ أربعةِ قرونٍ يومَ الفتحِ، انطلقَ المقاتلونَ العربُ الأشداءُ يعبرونَ بحرَ الزقاقِ، ويجتازونَ المضيقَ الذي مرَّ به طارقُ بنُ زياد وترك

اسمَهُ عليه منقوشاً في سجلِّ التاريخِ إلى الأ بدِ. غيرأنَّ هذا العبورَ لم يتمَّ، كما مضى، بسفنٍ افرنجيةٍ مسيحيةٍ تابعةٍ ليوليانَ حاكمِ سبتةَ الاسبانيةِ، ولكنَّهُ امتازَ بأنَّهُ تحققَ على ظهرِ سفنٍ عربيةٍ إسلاميةٍ تسيرُ بإمرةِ ابنِ تاشفينَ أميرِ المرابطينَ. وكان باسمِ اللهِ مَجراها ومُرساها.

وهكذا، وفي فجرِ يومٍ من أوائلِ شهرِ ربيعٍ الآخر سنة ٤٧٩ من الهجرةِ الموافق لمنتصفِ شهرِ حزيران من ١٠٨٦ للميلادِ، أشار القائدُ المغربيُّ ببدءِ الرحلةِ، فانتشرَتْ أشرعَةُ السفنِ عريضةً في الفضاءِ، وارتفعَتْ راياتُ المرابطينَ عاليةً في السماءِ.

وما لبثَ ابنُ تاشفينَ أنِ اتَّجه إلى سفينةِ القيادةِ، فصعدَ إليها ومضى إلى مقدِّمتِها، ثم بسطَ ذراعيهِ نحوَ السماءِ، وأخذَ يدعو ربَّهُ بصوتٍ خاشعٍ

متهدج:

ـ «اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمينَ، فسهِّل عليَّ جوازَ هذا البحرِ. وإن كانَ غيرَ ذلكَ فصعِّبه حتى لا أجوزَه».

و يروي المسلمونَ الأتقياء أُنّ البحرَ ما لبثَ أنْ هدأ، وجازتِ السفنُ في اليَمِّ سراعاً في ألطفِ جوٍّ، إلى أنْ بلغت شاطىء الأندلسِ.

أمّا قوافلُ هذهِ السفنِ فقد كانَ على ظهرِها، وخلافاً لعادتِها، عددٌ كبيرٌ من الجِمالِ لعلَّها ترحلُ من صحرائِها إلى ربوعِ اوربا للمرةِ الأولى في التاريخِ.

يا لَهُ من عبورٍ فذٍّ نزلَ في إثرِهِ القائدُ يوسفُ بنُ

تاشفين بسلاحِهِ كاملاً، ليطأ البرَّ الأوربيَّ، ثم ليصليَ في عسكرِهِ شكراً للخالقِ الأعظمِ، ثم ليقفَ خطيباً في جندِهِ يقولُ بعدَ حمدِ الله والثناء على رسوله:

ـ «إنّما كانَ غرضُنا من امتلاكِ هذهِ الجزيرةِ أنْ نستنقذَها من أيدي الرومِ، لمّا رأينا استبدادَهم على أكثرِها، ولمّا رأينا من غفلةِ ملوكِ الأندلسِ، واهمالِهم للغزوِ، وتواكلِهم وتخاذلِهم وايثارِهِمُ الراحةَ. ولئن عشتُ لأُعيدنَّ جميعَ البلادِ التي ملكَها الرومُ في طولِ هذهِ الفتنةِ إلى المسلمين، ولأملأنَّها عليهِم خيلاً ورجالاً لا عهدَ لهمْ بالدَّعةِ، ولا علمَ عندهمْ برخاءِ العيشِ. إنّما همُّ أحدِهِم فرسٌ يروضُه».

بهذه العباراتِ القليلةِ أبانَ زعيمُ المرابطينَ عن

أهدافِهِ، وعبَّرَ عن مقاصدِهِ، مُتخذاً من الجهادِ دستوراً لنفسِهِ ولأمتِهِ.

وما إنْ عادَ الأميرُ إلى سُرادقِهِ حتى وجدَ جمعاً غفيراً من وجوهِ الجزيرةِ الخضراءِ وقد تحلَّقوا حولَه، يُهلّلونَ و يُكبّرونَ، تقديراً وتعظيماً. ثم وَضعوا بينَ يدي القائدِ العظيمِ ما جَلبوهُ معهمْ من أعتدةٍ وأقواتٍ وقدَّموا لَهُ ما هو لائقٌ من الهدايا والهباتِ. ثم ودعوهُ مُسْتبشرينَ بنصرٍ منَ اللهِ وفتحٍ قريبٍ.

وتدفقتْ جموعُ المرابطينَ على الجزيرةِ الخضراءِ التي كانَ قد أخلاها لهم المعتمدُ بنُ عبادٍ. وما لبثَتْ هذه البقعةُ أنْ غدتْ بينَ عشيةٍ وضحاها قاعِدَةً عسكريةً ضخمةً، تضجُ بالحركةِ وتعجُّ بالمجاهدينَ،

ولمّا كانتِ الجزيرةُ الخضراءُ مفتاحَ اسبانيا،

فقد أمر ابنُ تاشفينَ بتحصينِها أتمَّ تحصينٍ، كما رمَّمَ قلاعَها وأسوارَها، ورتبَ فيها حاميةً مُختارةً لتسهرَ عليها، وشحنَهَا بمقاديرٍ عظيمةٍ منَ الأقواتِ والذخائرِ، لكيْ تغدوَ ملاذاً أميناً يلتجِئُ إليهِ، إذا مُنيتْ حملتُه بالاخفاقِ.

وبعدَ هذهِ المرحلةِ، مرحلةِ الحشدِ والتعبئةِ، قصدَ ابنُ تاشفين بجيشِهِ إلى اشبيليةَ بعدَ أنْ كتبَ إلى عددٍ من قادةِ الأندلسِ أنْ يوافوهُ إليها، وكان كلُّ أميرٍ قد تعهدَ بأن يجمعَ ما في وسعِهِ من المؤنِ والجندِ.

أمّا المعتمدُ بنُ عبادٍ صاحبُ اشبيليةَ، فكان أسبقَ الأمراءِ إلى لقاءِ صديقِهِ ابنِ تاشفين، كما كانَ من قبلُ أسبقَهم إلى الاتصالِ بهِ والتحالُفِ معهُ. فخرجَ لاستقبالِهِ على رأسِ جمعٍ حاشدٍ من أركانِ دولتِه، ووجهاءِ عاصمتِه.

وقد همَّ المعتمدُ بأنْ يترجل عن جوادِهِ وأنّ يقبّلَ يدَ الزعيمِ الوافدِ، تعبيراً عن مشاعرِ التبجيلِ والاعظام، وإعراباً عن آياتِ الفضلِ والعرفانِ. غير أنَّ ابنَ تاشفين أبى عليهِ ذلكَ، فما هو الآنَ بأكثر من حليفٍ ونصيرٍ. وتصافحَ القائدانِ وتعانقا، وتجلّتْ في وجوهِهما ملامحُ الغبطةِ والارتياحِ. وهنأ المعتمدُ ضيفَهُ الكبيرَ بسلامةِ الوصولِ، وتحادثَ الرجلانِ منفردينَ بعض الوقتِ.

ولبثَ أميرُ المرابطينَ في اشبيليةَ ثمانيةَ أيامٍ، أخلدَ خلالَها إلى شيءٍ من الراحةِ من عناءِ رحلتِهِ، ومضى يستكملُ ما كانَ في صددِهِ من خطَّةِ القتالِ والاعدادِ للمعركةِ.

الزحف نحو الزلاقة

باتَ جلياً في اثرِ عبورِ ابنِ تاشفين البحرَ لنجدةِ الأندلسيينَ أنّ الهدفَ البعيدَ الذي كانَ ينشده الزعيمُ المغربيُّ قد تحقَّقَ، وهو حشدُ طاقاتِ المسلمينَ تحتَ لواءٍ واحدٍ، تقفُ صفاً واحداً أمامَ العدوِّ المشتركِ، وتدرأ عن نفسِها الخطرَ الداهمَ. فقدِ اجتمعَ من جماعاتِ المسلمينَ فوقَ ذلكَ الصعيدِ ما لم يجتمعْ من قبلُ.

كانتِ القواتُ الإسلاميةُ الضاربةُ تتألفُ بالدرجةِ الأولى من المقاتلينَ المغاربةِ المرابطينَ،

وفيهم جموعُ زناتةَ ومغراوةَ وصنهاجةَ الخ.. وإلى جانبِها كتائبُ دولةِ بني عبادٍ، ترفدُهم في ذلكَ جماعاتٌ مجاهدةٌ من بَطَلْيوس بزعامةِ المتوكل بنِ الأفطسِ،ومن المرّيةِ بزعامة المعز بن صُمادح ومن غرناطة بزعامة عبدِ الله بنِ بلقينَ، ومن مالِقةَ بزعامةِ أخيهِ تميمِ بنِ بلقين، ثم مجاهدونَ من الثغر الأعلى، كما كان فيهم متطوعونَ من بني عزون ومن جماعةِ ذي النون.

كذلكَ أقبلَ من أهلِ قرطبةَ عسكرٌ كثيرٌ، واستمرتْ جموعُ المطوعةِ تفدُ إلى اشبيليةَ، حتى لم يبقَ من ملوكِ الطوائفِ بالأندلسِ إلاّ مَنْ بادرَ وأعانَ، وخرجَ وأخرجَ.

وكانتِ الروحُ المعنويةُ بينَ المجاهدينَ جميعاً عاليةً متأججةً، وبدا المسلمونَ وكأنَّهم أفاقوا من

سباتٍ عميقٍ. وقد وصفَ هذهِ المشاعرَ المضطرمةَ واحدٌ من كبراءِ القومِ الذينَ أسهموا في معركةِ التوحيدِ، وهو عبدُالله بنُ بلكين صاحبِ غرناطةَ إذ قالَ:

«.. وظننا أنَّ اقبالَ يوسفَ بنِ تاشفين وصحبهِ على الأندلسِ منةٌ من اللهِ عظمتْ لدينا لِمَا شاعَ من خيرِهم، واقبالِهم على طلبِ الآخرةِ، وحُكْمِهم بالحقِّ... ولقينا أميرَ المسلمينَ في طريقِهِ إلى بطليوسَ بجيوشِهِ، ورأينا من إكرامِهِ لنا، وتحفيه بنا، مازادَنا ذلكَ فيهِ رغبةً لو استطعنا أن نمنَحه لحومَنا فضلاً عن أموالِنا».

* * *

لقد بلغَ ذلكَ كلُّهُ مسامعَ الفِرنجةِ فهالَهمُ الأمرُ، وكانَ أولُّ ردِّ فعلٍ تُجاهَ التأهبِ العربي، هو اضطرارُ

الفونسو السادسِ ملكِ قشتالة القويِّ إلى فكِّ الحصارِ عن سرقسطه في شمالِ الأندلسِ، كما عمدَ بعد ذلكَ (ألفيرو هانيس) إلى رفعِ الحصارِ عن بلنسيه في جهةِ الشرقِ، وأخيراً وجدَ (سانشو راميريس) نفسَهُ مكرهاً على التخلي عن محاصرةِ طرطوشة. وهكذا تنفَّستْ هذهِ المدنُ الأندلسيةُ الصعداءَ، إذ جاءَها الفرجُ بعد الضيقِ. وكان على هؤلاء القادةِ الافرنجِ أنْ يلتفتوا إلى الخطرِ الجديدِ الذي صنعَه تحالُفُ المعتمدِ وابنِ تاشفين.

ولم يجدْ زعماءُ الاسبانِ بدّاً، إزاءَ هذا الوضعِ الجديدِ الخطيرِ من أنْ يستنفروا الشعوبَ المسيحيةَ المجاورةَ في أوروبا لصَدِّ هذا الجحفلِ الاسلاميِّ الزاحفِ. واستجابتِ الكنيسةُ الرومانيةُ التي كانت تهيمنُ على كنيسةِ اسبانيا، لصرخاتِ الاستغاثةِ

«ورفعَ القسيسونَ والرهبانُ والأساقفةُ صلبانَهم، ونشروا أناجيلَهم».

وهكَذا، وفي مقابلِ الحشودِ الإسلاميةِ من أصقاعِ المغربِ والأندلسِ، خفَّ الفرسانُ من ايطاليا من وراءِ جبالِ الألبِ، ومن بلادِ الغالِ (فرنسا) من وراءِ جبالِ البرانسِ، وأرسلتِ النجداتُ من جليقية وليون وبسكونية (نافار) إضافةً إلى قُوّاتٍ كبيرةٍ من أرغونة وبنبلونة وقشتالة. وكان الفونسو السادسُ، كشأن المعتمدِ، قُطْبَ الرحىٰ في هذه الاستعداداتِ الكبرى، لِما كانَ لَهُ من شأنٍ بينَ أمراءِ اسبانيا، إذ كان أيضاً أقواهُم سُلطاناً، وأوسعَهُم مُلكاً، وأشدَّهم بأساً.

تلكَ الأحوالُ السائدةُ كانتْ تُنذِرُ آنئذٍ بأنّ الصدامَ بين العربِ والفرنجةِ سوفَ يكونُ عنيفاً، وأنّ المعركةَ الناشبةَ بينهما ستكونُ فاصِلةً.

غادرَ ابنُ تاشفين بجيشِهِ اشبيلية قاصداً إلى بطليوسَ في غربي الأندلسِ، وكانتْ مدينةً ذاتَ قلعةٍ منيعةٍ، ثم اختارَ أنْ يُعسكِرَ في ظاهرِها. ولعلّهُ فكّرَ في احتمالاتِ الهزيمةِ كما فكّرَ في احتمالاتِ النصرِ، فحينَ يحلُّ الخطرُ تكونُ بطليوس ملاذاً أميناً للمقاتلينَ.

أمّا الفونسو فقد اهتمَّ بهذهِ الخطوةِ، وخشيَ أنْ يزدادَ العربُ قرباً من مملكتِهِ فيهددوا طليطلةَ عاصمةَ قشتالة التي استردَّها من العربِ قبلَ حينٍ. ونحنُ نستبعدُ أنْ يكونَ العربُ، ولا سيما المرابطينَ قد وضعوا في خطتِهم هذا الهدفَ، وهو التوغلُ نحو الشمالِ، كيلا يبتعدوا كثيراً عن أراضيهم، و يطيلوا خطوطَ تموينِهِم، مغامرينَ بجيوشِهِم إلى هذا المدى. كما أنّ طليطلةَ عاصمةَ الفونسو في مملكةِ قشتالَةَ

كانت شديدةَ التحصينِ كثيرةَ القلاعِ، وهي في مناعتِها ليست سهلةَ المنالِ. ولكنّ الوهمَ ــ فيما يبدو ــ جعلَ الفونسو يعتقدُ أنّه مُهدَّدٌ في قاعدةِ مُلكِهِ، فرأى أنْ يتركَها على شدةِ تحصينِها ليتصدّى للعربِ و يوقفَ زحفَهُمْ. ولعلَّ من أسبابِ ذلكَ خشيةَ الفونسو على حاضرةِ مُلكِهِ وقراهُ أنْ يلحقَ بها الدمارُ من جراءِ نشوبِ القتالِ في ربوعِهِ، فآثرَ أنْ ينقلَ المعركةَ إلى أرضِ أعدائِهِ.

ومهما يكن من أمرٍ فقد كانَ ذلكَ في رأي بعضِ المؤرخينَ خطأً جسيماً وقعَ فيهِ الفونسو، إذ جاءت اندفاعتُهُ تلكَ في صالحِ العربِ، الذين جعلوا ينتظرونَ قدومَ العدوِّ إليهم وهم في أتمِّ راحةٍ وأحسنِ استعدادٍ، على حينٍ كانَ بوسعِ الفونسو أنْ يتريثَ مُنتظراً توغلَهمْ بعيداً عن قواعِدِهم، فيتصدى لهم وهم يعانون من الضنى والإنهاكِ.

وقبلَ أنْ يزحفَ الفونسو بجيشِهِ نحو بطليوس للقاءِ العربِ، انفذَ إلى المعتمد بنِ عبادٍ، حليفِ الأمسِ وعدوِّ اليومِ ،كتاباً مفعماً بالغطرسةِ والتحدي، على مألوفِ عادتِهِ وما فُطِرَ عليهِ من جفاءٍ وغلظةٍ، وقد جاءَ فيهِ:

«إنّ صاحبَكم يوسفَ قد تعنّى من بلادِهِ، وخاضَ البحارِ. وأنا اكفيْهِ العناءَ فيما بقيَ، ولا أكلِّفُكُم تعباً. ولسوفَ أمضي إليكمُ وألقاكُم في بلادكم، رفقاً وتوفيراً عليكم».

وقال الفونسو لخاصتِهِ بعد أنِ اعتزمَ الخروجَ:

«رأيتُ أنّي إنْ مكنتُهم من الدخولِ إلى بلادي، فناجزوني فيها وبينَ جُدُرِها ــ وربما كانتِ الدائرةُ عليَّ ــ فسوفَ يستحلّونَ البلادَ، ويحصدونَ

مَنْ فيها غداةً واحدةً. ولكني أجعلُ يومهم معي في حوزِ بلادِهم. فإنْ كانتَ (الدائرة) عليَّ اكتفَوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروبَ وراءهَم إلاّ بعدَ أهبةٍ أخرى. فيكونُ في ذلكَ صونٌ لبلادي وجبرٌ لمكاسري. وإنْ كانتِ الدائرةُ عليهم كانَ مني فيهم وفي بلادِهم ما خفتُ أنا أنْ يكونَ فيّ وفي بلادي إذا هم ناجزوني في وسطِها».

* * *

ولم يكتفِ الفونسو بهذا الكتابِ المتعالي، بل انفذَ إلى ابنِ تاشفينِ كتاباً مماثلاً أغلظَ فيهِ القولُ لأميرِ المسلمينَ، وراحَ يتيهُ عليهِ بما لديهِ من جُنْدٍ وفُرْسانٍ، وعدّةٍ وعتادٍ، وأسرفَ في ذلكَ. فلمّا وصلَ الكتابُ إلى القائدِ المغربيِّ وقرىءَ عليهِ غضب،

وأمر كاتبَهُ أبابكرِ بنَ القصيرة، وكان كاتباً بليغاً، أنْ يجيبَهُ بلهجةٍ مماثلةٍ. فكتب وأجاد. فلما قرأ ما كتب على الأميرِ قال:

«هذا كتابٌ طويلٌ»، وأحضرَ رقعةَ الفونسو نفسَها واكتفى بأن كتبَ إليهِ على ظهرِها:

«الذي يكونُ سوفَ تراهُ». وحينَ تسلمَ الفونسو هذا الجوابَ ارتاعَ، وأيقنَ أنّه ابتليَ برجلٍ يؤثرُ الفعلَ على القولِ.

التحدي والمواجهة

خرجَتِ القُوَّاتُ الإسلاميةُ المتحالفةُ إلى مكانٍ منبسطٍ تتخلَّلُهُ بعضُ الأحراشِ في ضاحيةِ سرقسطة كان العربُ يسمونهُ (الزلاقة) أي السهلةَ، و يطلقُ عليهِ الإسبانُ (ساكرا لياس) و يقعُ هذا السهلُ إلى الشَّمالِ الشرقيِّ من بطليوس على مقربةٍ من حدودِ البرتغالِ الحاليةِ، حيثُ اتخذَ المقاتلونَ مواقعَهم في رِحابِهِ.

وقد رأى القائدُ يوسفُ بنُ تاشفين ـــبوحيٍ من

خبرتِهِ وممارستِهِ وبُعْدِ نظرِهِ ــ أنْ تكونَ قواتُ المسلمينَ موزعةً في معسكريْنِ كبيرينِ: معسكرِ المغاربةِ، وقد جعلَهم في جانبٍ من السهلِ، ومعسكرِ الأندلسيينَ، وجعلَهم في جانبٍ مغايرٍ من هذا السهلِ. ولعلَّه أرادَ من الوجهةِ العسكريةِ أنْ تدورَ رحى القتالِ حولَ محوريْنِ، لِيُلْجِىءَ جيشَ الفونسو إلى أنْ ينشغلَ في المحاربَةِ على جبهتينِ، حتى إذا حانتِ الفرصةُ المناسبةُ التأمَ شطرا الجيشِ في قوةٍ ضاربةٍ موحَّدَةٍ. وقد يكونُ وراءَ ذلكَ أيضاً حرصُ ابن تاشفين على ألاّ يختلطَ المرابطونَ الصحراويونَ برفاقِهِمُ الأندلسيينَ، إذ لكلٍّ من الجانبينِ طباعُهُ، وأيضاً لكلٍّ منهما طُرُقُهُ في القتالِ، وأساليبُه في الحروبِ.

وكان من الطبيعيِّ أيضاً أنْ يكونَ القائدُ ابنُ

تاشفين على رأسِ قواتِه من المغاربة الأفارقة الذين أعتادَ قيادَتَهم في المعاركِ، وأنْ تكون في مقابلة ذلكَ قيادةُ المقاتلينَ الأندلسيينَ من مدنِ الطوائفِ للمعتمدِ بنِ عبادٍ. وكان إلى جانبِ كلٍّ من الزعيمينِ عدَدٌ من أبرعِ القادةِ وأشجعِهم وأشدِّهم بأساً وتمرساً بالقِتالِ، وفيهم داوودُ بنُ عائشةَ المغربيُّ أقوى قوَّادِ البربرِ، وصنوه سيربن أبي بكر. كذلكَ كانَ على رأسِ قواتِ الميمنةِ في الوَحْدةِ الأندلسيةِ المتوكلُ بنُ الأفطس. أمّا المعتمدُ نفسُهُ فقد برزَ على رأسِ مقدِّمةِ الجيشِ. وفي المؤخرةِ كان يوسفُ بن تاشفين على رأسِ الجيشِ الاحتياطيِّ المؤلفِ من نخبةِ المرابطينَ وأشدائِهم.

وما لبثَ الفونسو أنْ تقدَّمَ أيضاً على رأسِ قواتِهِ المشتركةِ نحو سهلِ الزلاقةِ. ثم جعلَ على مقدمةِ

جيشِهِ القائدِ (الفيرو هانيس). وكانتْ هذهِ القواتُ في مُعظمِها تتألفُ من جنودِ (أراغون) ومن سائرِ جموعِ مُتطوِّعةِ النَّصارى.

وتقاربَتِ القواتُ المتعاديةُ حتى أصبحتِ الواحدةُ من الأخرى على مرمى النظرِ، إذ لم يكنْ يفصلُ بينهما سوى شريطٍ ضيقٍ من الأرضِ يخترقُه نهرُ بطليوس، وهو نهرٌ صغيرٌ يسميهِ العربُ جُحير، ويشكلُ رافداً لنهر اليانعِ الممتدِ شمالاً في اتجاهِ نهرِ التاجِ.

وضربَ ابنُ تاشفين معسكَرَه وراءَ ربوةٍ عاليةٍ منفصلاً بقوتِه عن قوةِ الأندلسيينَ، أمّا الأندلسيونَ فقد عسكروا في مواجهةِ جموعِ الفرنجةِ التي لا تكادُ تدركُ نهايتَها الأبصارُ، فكادَ الرعبُ يأخذُ بقلوبِهِم

واليأسُ يسري في نفوسِهِم، برغم ما كانوا فيه من ثقةٍ واستبشارٍ.

أمّا الفونسو فقد تملَّكَهُ الزهو بما اجتمعَ له تحتَ لوائِهِ من جيشٍ جرارٍ، فخاطبَ أعوانَهُ من القادةِ معرباً عن ثقتِهِ الكبيرةِ بالنصرِ ثم قال:
«بهؤلاءِ أقاتلُ الجنَّ والإنسَ وملائكةَ السماءِ».

* * *

والآنَ وقد أتمّ ابنُ تاشفين استعدادَهُ فقد وجدَ أنَّ ساعةَ الجهادِ قد دقَّتْ وأنّ معركةَ الجهادِ قد أزِفت، أليس هذا ما جاءَ من أجلِهِ ليعلي كلمةَ اللهِ ويضعَ للطغيانِ حدّاً. وكان أنِ استدعى كاتبَهُ إلى سرادقه، وأملى عليه كتاباً وجّههُ إلى الفونسو، وكانَ الكتابَ الأخير، وقد جاءَ فيه:

«بَلَغَنا يا اذفونش أنّكَ دعوتَ إلى الاجتماعِ بنا وتمنيتَ أن تكونَ لكَ سفنٌ تعبرُ فيها البحرِ الينا. وها قد عبرنا إليكَ، وقد جمعَ اللهُ في هذهِ الساحةِ بيننا وبينك، وسترى عاقبةَ دعائك. وما دعاءُ الكافرين إلاّ في ضلال». ثم عرضَ أميرُ المسلمينَ على زعيمِ الفرنجةِ أنْ يختارَ بينَ الإسلامِ وبينَ الجزيةِ، والاّ فليوطِّنَ نفسَهُ على مواجهةِ السيفِ.

وحينَ بلغَ الفونسو الكتابُ كبُرَ عليهِ الأمرُ، فقذفَ بهِ أرضاً، وهو يُرغي ويُزبدُ، من شدةِ الغضبِ، ثم قالَ لصحبِهِ مزدهياً:

«إنَّ المسلمينَ يؤدونَ إلينا الجزيةَ منذُ سنواتٍ وهم صاغرونَ»، والتفتَ إلى رسولِ ابنِ تاشفين قائلاً:

«عُدْ إلى مولاكَ وابلغْهُ أنَّ ملتقانا ساحةَ الحربِ».

وهكذا تأزمَ الوضعُ ولم يعدْ هناكَ أيُّ شكٍ في استعارِ القتالِ، بعد أن تصلبَتِ المواقفُ، وشُحِنَتْ نفوسُ الطرفينِ بأشدِّ عناصرِ الإثارةِ والاستفزازِ. و بدا أنَّ الالتحامَ واقعٌ بينَ عشيةٍ وضحاها.

و بعدَ لحظاتٍ من التفكيرِ وجدَ الفونسو أنَّهُ منَ الخيرِ له أنْ يكظمَ غيظَهُ، و يتظاهرَ أمامَ أعدائِهِ بعدم حرصه على استعجالِ الحربِ. ولمّا لم يبقَ سوى تعيينِ يومِ المعركةِ على حسبِ ما كانَ متبعاً في تلكَ العصورِ، فقد رأى الفونسو أن يعمدَ إلى التضليلِ آملاً أنْ يُباغِتَ المسلمينَ، وهكذا بادَرَ إلى كتابةِ رسالةٍ إلى ابنِ تاشفين تنطوي على لطفٍ غيرِ معهودٍ لديهِ، وقالَ فيه:

«إنَّ غداً يومُ الجمعةِ، وهو يومُ المسلمينَ، ولستُ أراهُ يصلحُ للقتالِ، واليومُ التالي، وهو السبتُ، يومُ اليهودِ، ومنهم كثيرونَ في المعسكريْنِ، وإذاً فلستُ أختارُهُ للقتالِ. كذلكَ لستُ أختارُ اليومَ التالي وهو يومُ الأحدِ لأنه يومُ النصارى. وعلى ذلكَ فإني اقترحُ أن يكونَ اللقاءُ يوم الإثنينِ، ففيهِ يستطيعُ كلٌ منا أنْ يُجاهِدَ بكلِّ قواه لاحرازِ النصرِ دونَ الاخلالِ بيومِهِ».

فوقعَ هذا الاقتراحُ من ابنِ تاشفين موقعَ الرضى. وتحددَ اللقاءُ يومَ الإثنينِ في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٠٨٦ وهو الموافق ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ.

غير انَّ المعتمدَ قال ليوسفَ: «هذهِ خديعةٌ من ابن فرديناند، انما يريدُ غدرَ المسلمينَ، فلا تطمئن

إليه، وليكن الناس على استعداد له طول يوم الجمعة كل النهار».

وهكذا فإنَّ المسلمينَ، بالرغم مِنْ إرجاءِ موعدِ القتالِ إلى ما بعدِ أيامٍ، لم يدخروا وسعاً في التحوطِ ضدَّ أيّةِ مفاجأةٍ. وكانَ المعتمدُ يرتابُ بنوعٍ خاصٍ في نياتِ الفونسو ملك قشتالة، بعد ما خبرَ من خدعِهِ العديدةِ، وعانى من جرائِها غَيرَ مرةٍ. وعمدَ أميرُ اشبيلية إلى بثِّ عيونِهِ في مضارِبِ المرابطينَ خوفاً عليهِم من مكائِدِ الفونسو، فهم غرباءُ لا علمَ لهم بهذهِ البلادِ ولا بالفرنجةِ. حتى إنّ المعتمدَ كان يُرى وهو يجولُ في معسكرِهم بنفسِهِ. كما أنفذَ فئةً من مَهَرةِ أعوانِهِ إلى أقربِ مدىً من معسكرِ الأعداءِ، ليستطلعوا الحالةَ من كثبٍ.

وباتَ جنودُ المعتمدِ، بنحوٍ خاصٍّ، على أهْبةٍ

واحتراسٍ، حذراً من كيدِ العدوِّ وخَتْلِهِ.

وفي صبيحةِ يومِ الخميسِ، أخذَ المسلمونَ مواقعَهم في جبهةِ القتالِ، وقامَ الفقهاءُ والعبّادُ يعظونَ الناسَ، ويحضونهم على الصبرِ، ويحذرونَهم من وصمةِ الفرارِ، ومغبةِ العارِ.

وما لبثَ فارسانِ من طلائعِ المعتمدِ أنْ عادا من مهمتهما الاستطلاعيةِ، وأخبرا المعتمدَ أنّهما أشرفا على معسكرِ الفرنجةِ وسمعا ضوضاءَ الجيوشِ، واضطرابَ الأسلحةِ. ثم تلا هذينَ آخرونَ كانوا قد أوغلوا في مضاربِ الفونسو، فأبلغوا ابن عباد أنّهُمُ استَرَقوا السمعَ الساعةَ فسمعوا ابنَ فرديناند (أي الفونسو) يقولُ لأصحابِهِ:

«ابنُ عبادٍ هو مسعِّرُ هذهِ الحروبِ. وهؤلاءِ

الصحراويونَ، وإن كانوا أهلَ حفاظٍ وذوي بصائرَ في الجِهادِ فهم غيرُ عارفينَ بهذهِ الجهاتِ، وإنّما قادهُمُ ابنُ عبادٍ، فاقصدوهُ واهجموا عليهِ، واصبروا. فإنِ انكشفَ لكم هانَ عليكُمُ الصحراويونَ بعدَهُ. ولا أرىٰ ابنَ عبادٍ يصبِر لكُم إنْ صدقتموهُ الحملةَ».

عندَ ذلكَ أوفَدَ المعتمدُ كاتِبَهُ على عجلٍ إلى مواقعِ ابنِ تاشفينَ يعرِّفُهُ باقبالِ جيشِ الفونسو ويستحثُّ نصرتَهُ. وحينَ أبلَغهُ الخبرُ قال له: «قل لابنِ عبادٍ، إنّي سأقربُ منكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى».

المعركة

حينَ قفلَ راجعاً رسولُ المعتمدِ من معسكرِ المرابطينَ، بعدَ أنْ أبلغَ الرسالةَ الهامةَ إلى ابنِ تاشفينَ، وهو يحملُ الجوابَ إلى ابنِ عبادٍ، وشارفَ معسكرَ الأندلسيينَ، وجدَ القِتالَ قد نشبَ.

وهكذا، حدثَ ما توقعَه المسلمونَ، خلافاً لما أعلنَه الفونسو. إذ ما كادَ يتنفسُ صبحُ اليومِ التالي، أيْ يومِ الجمعةِ عيدِ المسلمينَ، حتى بدأ الفرنجَةُ هجومَهُمُ المرتقبَ. وبدأتِ المعركةُ في ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ، الموافق ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٠٨٦ م.

وكان الفونسو قد عبّأ جيشَهُ الكبيرَ، وتولّى بنفسِهِ قيادةَ القلبِ. أمّا الجناحانِ فتركهُما لحلفائِهِ من كبارِ الأمراءِ والقادَةِ، جاعلاً على رأسِ الميمنةِ الكونت رودريك والكونت غارسيا، كما جعلَ على رأسِ الميسرةِ ألفيرو هانيس، ومعظمُ هذا الجيشِ من القشتاليين والأرغونيين، «الذين تحصنوا بالحديد من قرونِهم إلى أقدامِهِم، واتخذوا من السلاحِ ما يزيدُ في جرأتِهِم وإقدامِهِم» فانقضّ هؤلاء بمنتهى العنفِ على جندِ الأندَلسِ الذينَ يقودُهُمُ الأميرُ القائدُ ابنُ عبادٍ.

وقد حرصَ الفونسو على توجيهِ ضربةٍ عنيفةٍ إلى قلبِ الجيشِ الأندلسيِّ الذي يقودُهُ المعتمدُ بنفسِهِ لكي يبعثَ الهلعَ والاضطرابَ في صفوفِ سائرِ أعدائِهِ. ولقد أفلحَ في تنفيذِ خطَّتِهِ هذه إلى حدٍّ

كبيرٍ، إذ تلقّى ابنُ عبادٍ الصدمةَ، وغدت فُرسانُ الفرنجةِ محدقةً به من كلّ صوبٍ. فارتدَّ المقاتلونَ الأندلسيونَ عن مواقعِهم، ولم يقووا على تحملِ الهجمةِ، فتضعضعَ جمعُهُم، وزُحزِحُوا عن مواقِعِهم، واختلَّ نظامُهم. وكان أنْ فرَّ كثيرٌ منهم متقهقرينَ تُجاهَ بطليوس يرومونَ الاحتماءَ بأسوارِها.

وسرعانَ ما اقبلتْ نحوَ قلبِ المعركةِ قوةٌ من الأفارقةِ الصحراويينَ قوامُها عَشَرةُ آلافِ فارسٍ يقودُهُمُ القائدُ المغوارُ داودُ بنُ عائشةَ، وكانَ من أقدرِ قادةِ المرابطينَ وأشجَعِهم. لقدِ استطاعَتْ هذهِ القوةُ المرابطيةُ، بفُرسانِها الأشداءِ، أنْ تُبليَ أحسنَ البلاءِ، وتقفَ وِقفةً باسلةً، كانَ لها أثرٌ فعالٌ في كسرِ حدَّةِ الهجومِ العنيفِ الذي شنَّهُ الفرنجةُ على العربِ، وقد كلَّفَها ذلكَ كثيراً من الضحايا.

ثم مالبثَ الفونسو، الذي كان يقودُ قلبَ الجيشِ، أنِ استجمَعَ قواهُ وكرَّ نحوَ الأندلسيينَ والمرابطينَ، يؤازرُهُ في ذلكَ القائدانِ سانشو راميريس وبرنجار ريموند. فاضطَرَّ فرسانُ المرابطينَ هذهِ المرةِ إلى التراجعِ إزاء قوةِ الهجمةِ.

واشتدتْ وطأةُ البلاء على ابنِ عبادٍ بعدَ أنِ اندفعَ الفونسو نحوهُ بثقلِهِ. لقد راحَ يقاتِلُ ببسالةٍ نادرةٍ، ويقاومُ مع صفوةٍ من صحبِهِ جموعَ الفرسانِ الأعداءِ، وهو يلتفتُ بينَ الحينِ والحينِ متطلعاً نحو الغربِ عساهُ يتبينُ مقدمَ ابنِ تاشفين إليه، فقد استبطأ حضورَهُ، وحارَ في أمرِهِ، ولكنَّهُ تذرَّعَ بالصَّبْرِ، وثبتَ في ميدانِ القِتالِ. وساءتْ ظنونُ أصحابِهِ بالمرابطينَ، بعد أنِ اقتصَرَتْ مُشاركتُهم في المعركةِ على عشرةِ آلافِ فارسٍ.

لقدِ انكشفَ الأندلسيونَ أمامَ العدوِّ، وفيهـمُ ابنُ المعتمدِ نفسُهُ عبدُالله بن عباد بسببِ وطأةِ الهجوم، ولم يعدْ في وسعِهم مواجهةُ الضغطِ المستمرِّ على صفوفِهم. واقترنَ زحفُ الفرنجةِ بصياحِ العساكرِ الحاشدَةِ التي كانتْ تندفعُ نحو الأندلسيينَ على نحوٍ مُروِّعٍ وسطَ ضجيجِ المعركةِ وصليلِ السيوفِ وحمحمةِ الخيلِ وصراخِ الجرحى.

كانت أرتالُ الفرسانِ الإسبانِ تتقدَّمُ مُدجَّجةً بالسلاحِ، ومن خلفِها تزحفُ صفوفُ الجندِ، وكأنهم كتلٌ متلاحِمةٌ من السُّحُبِ القاتِمَةِ. وكانَ ذلكَ كلُّهُ يتجاوزُ طاقةَ المحاربينَ من رجالِ ابنِ عبادٍ، ولا سيما أمام ما واجَهَهُم به العدوُّ من أعدادٍ كبيرةٍ لا قِبلَ لهم بإيقافِ زحفِها الطاغي. فكانَ أنِ ارتاع الأندلسيونَ أيماً روعٍ، وبدأتْ جموعُهمْ تلوذُ

بالفرارِ، تطارِدُهم كتائبُ الفونسو دونَ هوادةٍ.

وحتى هذهِ اللحظاتِ الحرجةِ، كان يبدو جلياً للعيانِ أنَّ كِفَّةَ الحربِ قد رجحتْ لصالحِ الفرنجةِ، بعد أنْ زحزحتِ الأندلسيينَ عن مواقعِهم، وفتكَتْ فيهم فتكاً ذريعاً، واثخنتْ قائدَهم بالجراحِ.

لقد أيقنَ الفونسو ببلوغِ النصرِ، بعد أنْ رأى رؤيةَ العينِ، أنَّ مقاومةَ المسلمينَ كانتْ تضمَحِلُ باستمرارٍ، وأنّ حركةَ الفرارِ بينهم كانت تتسعُ باطرادٍ.

* * *

وظلُّ ابنُ عبادٍ يقاتلُ في ظروفٍ صعبةٍ قتالَ المُستميتِ. وقد تمكَّنَتْ منَ رأسِهِ ضربةُ سيفٍ فلقَتْ هامتَهُ حتى بلغتْ صدغَهُ، كما جرحَتْ يمنى

يديهِ، ونالته طعنةُ رمحٍ في أحد جانبيهِ. لقد عُقِرَتْ تحتَهُ ثلاثةُ أفراسٍ، كلمَّا هَلكَ واحدٌ قُدِّمَ لهُ آخرُ، وهو لا يفتأ يضربُ شِمالاً ويميناً دون هوادةٍ، ويذكرُ، وهو في تلكَ الحالةِ ابناً له صغيراً كانَ مشغوفاً به وقد خَلَّفَهُ في اشبيليةَ عليلاً، اسمُهُ العلاءُ وكنيتُهُ أبو هاشمٍ، فهاجَ ذلكَ نفسَهُ، وأثارَ قريحَتَه فقالَ مرتجلاً، وكانَ شاعراً مُبدعاً:

أبا هاشمٍ هشَمَتني الشفارْ
وللهِ صبري لذاكَ الأوارْ
تذكرتُ شخصَكَ تحتَ العجاجِ
فلم يَثْنِني ذكرُهُ للفرارْ

أجلْ، لقد ثبتَ الشاعرُ الملكُ، والقائدُ البطلُ في أرضِ المعركةِ، وهو يتذكرُ ولدهُ، على نحو ما كان من أمرِ عنترةَ بنِ شدادٍ، حينَ تذكرَ حبيبتَه عبلةَ

والرماحُ تطاعنُه، فلم يزدْهُ ذلك إلا عزيمةً ومضاءً. يا لَها من نفوسٍ مرهفةٍ قويةٍ، إنّها ترقُّ حتى تغدو في نعومَةِ الحريرِ، وتتجلدُ حتى تقاربَ في بأسِها قوةِالحديدِ.

إنّ صمودَ المعتمدِ بنِ عبادٍ الأندلسيِّ إلى أبعدِ مدى في ذلكَ الوقتِ العصيبِ مع صفوةٍ من مقاتليهِ الأشداءِ، وإلى جانبه داودُ بنُ عائشةَ الأفريقيُّ مع نُخْبةٍ من فرسانِهِ الأشاوسِ، خلالَ ساعاتٍ قليلةٍ حالكةٍ، كانَ قد آتى أكلَهُ، وكانت له نتائجُ طيبةٌ في تغييرِ وجهِ معركةٍ من أبرزِ معاركِ التاريخِ في تلك العصورِ الوسطى. فمن خلالِ هذا الصمودِ البطوليِّ لاحَ نور الفرجِ الوضاءُ، وبرقتْ تباشيرُ الأمَل المشرقِ، أجل:

اشـــتـدي، أزمــةُ تــنـفـرِجـي
قـــد آذن لـــيــلُــكِ بـــالـبَـلَـجِ

ولكنْ ماذا عن ابنِ تاشفينَ؟ أهو غائبٌ عن هذا اليومِ الموعودِ، أم أنَّهُ نائمٌ عن هولِ ما يجري في جبهةِ القتالِ، وأينَ جندُهُ الصحراويونَ العتاةُ، ومقاتلوه الأفارقة الأشداءُ؟ أو لم يعبرِ البحرَ و يقطعِ البلادَ انتظاراً لهذهِ اللحظاتِ التاريخيةِ...

أجل، ذلك الليثُ الهصورُ الذي كانَ رابضاً على رأسِ القوةِ الضاربةِ الكبيرةِ، كانَ يؤلفُ مع اتباعِهِ المتمرسينَ بالحروبِ، الجيشَ الاحتياطيَّ الذي حانَ الآنَ أوانُ زجّهِ في المعركةِ.

لقد كانَ المغاربةُ يرابطونَ مع قائدِهم يوسفَ بنِ تاشفينَ في المعسكرِ الثاني، بعد أنِ اتَّخذوا مواقعَهم في ناحيةٍ متطرفةٍ من بطاحِ الزّلاَّقةِ، وربضوا وراء تِلالٍ مُتطاولةٍ كانت تحجُبُهم عن أنظارِ الفرنجةِ.

كان هذا الجيشُ مُسْتريحاً حتى الآنَ، ولم يشأ أنْ يشاركَ في قِتالٍ .وفقَ خطَّةٍ مرسومةٍ مكتومةٍ ارتضاها قائدُهُ ابنُ تاشفين . فعيونُ هذا النَّسْرِ الأفريقيِّ كانت ترقبُ المعركةَ الدائرةَ بنظراتٍ خفيَّةٍ ولكنَّها ثاقبةٌ، وهي تنتظرُ نفادَ طاقاتِ العدوِّ وخمودَ عنفوانِهِ. حتى إذا ما دَنَتِ اللحظةُ المناسبةُ، ظهرَ المقاتلونَ من وراءِ الأكمةِ، وكأنَّما هُمُ الجن خرجوا على الملأ من جوفِ الأرضِ.

أمّا الفونسو فلم يخطرُ له في بالٍ ــ لسوء طالعه ــ أنّه إنّما كان يخوضُ الحربَ مع شطرٍ من قواتِ أعدائِهِ وليسَ جميعَها.

في تلك الآونةِ المناسبةِ وعلى نحوٍ مفاجىءٍ، وثبَ يوسفُ بنُ تاشفين بجيشِهِ إلى مَيْدَانِ القتالِ. فعلى

حينِ كانت قوى الفرنجةِ في هبوط، وطاقاتُهُم في خمودٍ، برزتْ قُوّاتُ المسلمينَ وهي في ذروةِ اندفاعها وأوج عنفوانِها.

وقُبيلَ الالتحام ِالجديدِ الصاعقِ الذي ابتدرَ به هذه المرةَ المسلمونَ أعداءَهُمُ الفرنجةَ، سارعَ ابنُ تاشفين إلى انجادِ المعتمدِ بعدةِ فرقٍ من بربرٍ زَناتةَ ومغراوةَ جاعلاً على رأسِهِمُ القائدَ المحنَّكَ أبا بكرٍ بنَ سير. وكان ذلكَ بدايةً تحولِ المعركةِ لصالحِ المسلمينَ، فأخذتْ كِفَّةُ الأندلسيينَ بالرجحانِ بعدما كانوا فيهِ من غمٍّ شديدٍ، فتنفسَ مقاتلوهم الصعداءَ وعادَ إلى نفوسِهِمُ الاستبشارُ.

وهكذا تقوّى عزمُ ابنِ عبادٍ على تحقيقِ النَّصْرِ على الفرنجةِ بعدَ هذا الكفاحِ المريرِ.

أما ابنُ تاشفينَ فقد انبرى في الوقتِ نفسِهِ

لخوضِ المعركةِ على رأسِ جيشٍ قويٍّ من البربرِ، قوامُهُ مقاتلونَ أشاوسُ خاضوا غمراتِ الحروبِ، وتمرسوا بأساليبِ المعاركِ، وصنعوا لابنِ تاشفينَ ولدولةِ المرابطينَ أمجاداً حافلةً.

وكان الفونسو في هذا الحينِ قد تقدَّمَ حتى صارَ في مواجهةِ مواقعِ الأندلسيينَ، وشارفَ خيامَهُم، واقتحَمَ الخندقَ الذي يحميها. غيرَ أنَّ ابنَ تاشفين ارتأى عدمَ مواجهتِهِ هنا في هذا الموقعِ أولَ الأمرِ، بل لجأ إلى خطَّةٍ مبتكرةٍ، انعطفَ بنتيجتِها إلى ناحيةٍ أخرى جانبيةٍ من السهلِ متجاوزاً الفرنجةَ المهاجمينَ. فقصدَ بكتائبَ من بربرِ لمتونة وصنهاجة إلى مُعَسْكرِ الفونسو الواقعِ خلفَ الجيوشِ المتحاربةِ، وكانت تحرسُهُ قوةٌ ضعيفةٌ، فاستطاعَ أنْ يُحْدِقَ به ويفتكَ بِمَنْ فيه، ثم أضرمَ في أنحائِهِ النارَ بعدَ أنِ اسْتولَى على ما فيهِ من ذخائرَ ونفائسَ.

ويبدو أنَّ الفونسو الذي كانَ مُنهمِكاً في مُطاردةِ الأندلسيينَ الفارينَ لم يكن يدري شيئاً مِمّا حدثَ مؤخراً، فقد كانتِ المفاجأةُ تامةً لهُ حينَ صادفَ أعداداً مُنهزِمةً من جيشِهِ وفيهم حرسٌ من معسكَرِه. وإذ التفتَ خلفَه رأى ألسنةَ النارِ وأعمدةَ الدخانِ تتصاعدُ من مَضارِبِ قومِهِ القشتاليينَ، فبُهتَ من هولِ ما رأى. وما كادَ يُفيقُ من الصَّدمةِ حتى لاحَ أمامَه ابنُ تاشفين مُقْبلاً عليهِ بقوةٍ بعد أنْ تحولَ من معسكرِ الفرنجةِ في الخلفِ إلى قلبِ الميدانِ. وكان اشتباكٌ عنيفٌ أصابَ جيشَ ألفونسو بالتصدعِ.

غيرَ أنَّ الفونسو المعروفُ بشدةِ عنادِهِ وقوةِشكيمتِهِ لم ييأسْ، على الرغمِ من هولِ الصَّدْمةِ. وسرعانَ ما تخلى عن الاشتباكِ معَ الأندلسيينَ

ومطارَدَةِ الفارينَ منهم، وتحولَ بكلِّ ما أوتيَ من قوةٍ إلى التصدّي لجيشِ ابنِ تاشفينَ. لقد بادرَ إلى جمعِ صفوفِهِ واستجمعَ أنفاسَهُ، ثم كرّ بفرسانِهِ من جديدٍ على المرابطينَ، وراحَ يقاتلُ كالوحشِ الجريحِ.

وخشيَ ابنُ تاشفين إزاءَ ذلكَ من مغبّةِ صمودِ الفونسو وقتالِهِ الضاري بعد أنْ لاحت أمامَهُ قبلَ قليلٍ تباشيرُ النصرِ. فأخذَ يثبُ بجوادِهِ السريعِ بينَ جماعتِهِ الأشداءِ ويتخللُ فيهِمُ الصفوفَ، وهو يُذْكي عزيمَتَهم ويحثُهم على الثباتِ، ويمنّيهِمُ بنصرٍ من اللهِ وفتحٍ قريبٍ، وكانَ يرددُ صائحاً:

«يامعشرَ المسلمينَ اصبروا وصابروا في هذا الجهادِ المقدسِ، لقد أنقصَ اللهُ عددَ المشركينَ، وإنّ الجنةَ مثوىَ الشهداءِ».

ولم يكنْ تشجيعُ ابنِ تاشفين بحملاتِهِ أقلَّ من

كلماتِهِ. فقد كانَ يخوضُ غمارَ المعركةِ في ذروةِ لظاها وأوجِ احتدامِها. وكانتِ الأخطارُ مُحْدِقةً به، والسيوفُ تتهاوى بين عينيهِ، والرماحُ تنقضُّ حولَ جانبيهِ، حتى بدا وكأنَّ عنايةَ الخالقِ كانتْ ترعاهُ، وملائكتُهُ كانتْ تحميهِ.

وحميَ وطيسُ المعركةِ واستمرَّ القتلُ بينَ الطرفينِ. وكان أنْ ثبتَ المرابطونَ في مكانهِم واستردَّ الأندلسيونَ ثباتَهم، وعادَ الفارونَ إلى مواقعِهم.

كانَ قرعُ طبولِ المرابطينَ يشقُّ عِنانَ السماءِ ويملأُ بدويّهِ الآفاقَ، ويزلزلُ من تحتِ جُنْدِ العدوِّ الأرضَ. كما كانت رؤيةُ الجِمالِ وهي تقفزُ بسَنامِها في أرضِ المعركةِ مشهداً غريباً على الفرنجةِ لم يكن لهم عهدٌ بمثلِهِ. وحدثَ من جراءِ ذلكَ كلِّهِ،

حيثُ الضربُ والطعنُ والرميُ على قدمٍ وساقٍ، أنْ جمحتْ خيلُ الفرنجةِ بفرسانها، ودبَّ في قلوبِهِمُ الذعرُ، وتملّكَ نفوسَهُمُ الهَلَعُ.

على أنَّ حدّةَ هذا الاشتباكِ سرعانَ ما ازدادتْ عنفاً وضرواةً، حينَ زجَّ ابنُ تاشفين بقوةٍ جديدةٍ في جبهةِ القِتالِ، ودفعَ بحرسِهِ الأسودِ إلى قلبِ المعركةِ، وقوامُهُ أربعةُ آلافِ مقاتلٍ سودانيٍّ، كانوا مسلحين بمزاريقِ الزانِ وسيوفِ الهندِ ودَرَقِ اللمطِ. فانقضُّوا على قواتِ الفرنجةِ انقضاضَ الصواعقِ، وشرعوا يفتكونَ فيهم فتكاً ذريعاً، حتى استولى عليهِمُ الهلعُ وعمَّت صفوفَهُمُ الفوضى، فاختلَطَ حابلُهم بنابلِهم. وقد أحدثتْ هذهِ الضربةُ الأخيرةُ شرخاً كبيراً في جيشِ الفونسو الذي كان قد تصدعَ، فكانت أشبهَ بالضربةِ القاضيةِ التي عجلت حلولَ النهايةِ.

ووجدَ الفونسو نفسَهُ مُكرهاً على التراجُعِ تجاهَ حملةِ المسلمينَ الصادقةِ، وآثر أنْ يرتدَّ إلى قاعدةِ جُنْدِهِ عساهُ يرمِّمُ ما تصدعَ من قوتِهِ، ولا سيما بعدما حلَّ في معَسكرِهِ. ولكنَّهُ اصطدمَ بمؤخرةِ المرابطينَ التي كانت منهمكةً في تطهيرِ معسكرِهِ من بقايا الفرنجةِ، فحدثَ اشتباكٌ عنيفٌ آخرُ بينَ الطرفينِ ما لبثَ طو يلاً حتى انجلى عن تمزُّقِ جموعِ القشتاليينِ من رعايا مملكةِ الفونسو نفسِها. وحلت بقواتِ الفرنجةِ عامةً خسائرُ جسيمةٌ.

وفي هذا الغمارِ تمكَّنَ أحدُ السودان الأشداء في هذا الفوجِ الافريقي من الوصولِ إلى الفونسو نفسِهِ ملكِ قشتالة وقائدِ الفرنجةِ، وأفلحَ في أنْ يطعنَه بخنجرِهِ في فخذِهِ طعنَةً نافذةً.

والآن بدا لألفونسو الواقعُ المتردي الذي آلَ

إليهِ، فأدركَ، وهو ينظرُ إلى أشلاءِ جيشِهِ بأسىً ومرارةٍ، أنّ المضيَّ في المقاومةِ أمسى عبثاً لا طائلَ منه ومغامرةً يائسةً محفوفةً بالمخاطرِ، بعد أنْ رجحتْ كِفَّةُ القتالِ بوضوحٍ إلى جانبِ المسلمينَ، فاعتزمَ الانسحابَ من أرضِ المعركةِ، باذلاً ما في وسعِهِ لانقاذِ ما يمكنُه انقاذُه من بقايا جيشِهِ المحطَّمِ، وأنْ يجنِّبَ نفسَهُ وأعوانَهُ الهلاكَ المحقَّقَ. وتبينَ لكلِّ ذي عينينِ أنّ الحربَ بينَ العربِ والفرنجةِ قد حقَّقتْ أغراضَها، وأنّ معركة الزَّلاَّقةِ قد شارفَتْ غايتَها.

وكانَ النهارُ قَدْ أوْفى على نهايتِهِ، وآذَنَتْ شَمْسُ ذلكَ اليومِ بالمغيبِ.

لقدْ تراجَعَ الفونسو معَ نفرٍ مِنْ صَحْبِهِ وأشرافِهِ منزوياً عن ميدانِ القتالِ، واعْتَصَمَ بتلٍّ قريبٍ حتى

سَتَرهُ الليلُ. وحينئذٍ استأنَفَ المسيرَ شمالاً تحتَ جنحِ الظلامِ في جماعةٍ محدودةٍ لا تتَعدّى بضع مئاتٍ مِنَ الفُرسانِ الذين استطاعوا الإفلات مِنَ الموتِ، بعد أنْ أثخنتهُمُ الجِراحُ، وعضّتهُم رَحى الحربِ. حتى لقَدْ ماتَ كثير مِنْ هؤلاءِ في الطريقِ، ولَمْ يَصِلْ مِنْهُم إلى طليطلةِ سوى عددٍ ضئيلٍ.

وإذْ ذاكُ أمرَ ابن تاشفين بوَقْفِ المطارَدَةِ والكفِّ عَنْ القِتالِ. ثُمَّ اقْبَلَ المعتمدُ على ابنِ تاشفين مُصافِحاً ومعانِقاً، وهَنَأهُ بالنصرِ المبينِ، وأشادَ ببأسِهِ وصِدْقِ جهادِهِ فبادَلَهُ يوسفُ التّهاني، وَشَكَرَ لَهُ عَظيمَ سَعْيِهِ، وَاثْنَى على حُسْنِ بَلائِهِ، وجَميلِ صَبْرِهِ.

ثُمَّ دَخلَ البطلانِ مدينةَ اشبيلية حاضرةَ بني عبادٍ، على جوادَيْنِ مُطهّمينِ، تحيطُ بِهما كتائبُ

الفُرسانِ المظفرَةِ، وتعلوهُما أكاليلُ الغارِ. لَقَدْ خَرَجَ الناسُ مِنْ بيوتِهِم للقائِهِما، حتّى لَمْ يبقَ في أحياءِ المدينةِ و بيوتِها أحدٌ لمْ يبادِرْ إلى استقبالِهِما ورشقِهِما بالورودِ والرياحينِ.

كما غَصَّتْ شبابيكُ المنازلِ وسطوح البيوتِ وشواطىء نهْرِ الوادي الكبير بجموع السكان الذينَ كانوا يُلوِّحونَ بأيديهم للموكبِ الظافرِ غبْطَةً واستبشاراً، على حينِ امتلأتِ الحناجِرُ بالزغاريدِ والأهازيجِ، وترددتْ في جَنباتِ المدينةِ أصداءُ التهليلِ والتكبيرِ.

حصاد المعركة

في صبيحةِ اليومِ التالي للمعركةِ، أدَّى المسلمونَ صلاةَ الصبحِ جَماعَةً، وشَكروا اللهَ على ما منَّ عليهم مِنْ نعمةِ النصرِ والظفرِ بالعدوِّ. ثم خَرجُوا يتفقدونَ جَرْحاهم و يدفنونَ قتلاهم، وهم يقرؤون الفاتحةَ على أرواحِ شهدائِهم. ثم راحوا يجمعونَ الغنائمَ والأسلاب، وكانَتْ عظيمةً وفيرةً. على حينِ كانتْ ثمة كتائبُ من فرسانِهم تَجولُ في أطرافِ السهلِ بقصدِ تَطهيرِهِ مِنْ فلولِ الفرنَجَةِ، وبهدفِ التيقن مِنْ ابتعادِهِم عَنْ تلكَ المنطقةِ.

لَقدْ أجْمعَ المؤرخون من العربِ والفَرنَجَةِ على عُنْفِ هذهِ العركةِ، معركة الزلاقة، وذكروا بجلاءٍ أنَّ النَّصْرَ فيها كانَ للمسلمينَ. وفي أثرِ ذلك اليوم المشهودِ خلا المعتمدُ إلى نفسِهِ في هدأةِ ذلكَ الليلِ وأمْسَكَ بريشتِهِ وراحَ يكتبُ إلى ابنِهِ الرشيدِ في اشبيلية يعربُ لهُ عن استبشارِهِ وسعادتِهِ بذَلِكَ النَصْرِ المؤزَر، فقال:

* «كتابي هذا مِنَ المحلة يوم الجمعةِ الموافي عشرينَ مِنْ رجبٍ، وقَدْ أعزَّ اللهُ الدينَ ونصرَ المسلمينَ، وفتحَ لهُم الفتحَ المبينَ، وأذاقَ المشركينَ العذابَ الأليم، والخطب الجسيم. فالحمدُ للهِ على ما يسَّرَهُ وسناهُ مِنْ هذهِ الهزيمَةِ العظيمةِ، والمسرة الكبيرة، هزيمة اذفونش، اصلاهُ اللهُ نكالَ الجحيم، ولا أعْدَمَهُ الوبال العظيم. بعد اتيان النهبِ على محلاتِهِ،

واستئصالِ القَتْلِ في جميع أبطالِهِ واجْنادِهِ، وحماتِهِ وقوادِهِ. حتى اتخذَ المسلمونَ من هاماتِهم صوامِعَ يؤذنونَ عليها. فللهِ الحمدُ على جميلِ صُنْعِهِ. ولم يُصبْني بحمدِ اللهِ تعالى الاّ جِراحاتٌ يسيرة، لكنها فرجَتْ بعد ذلك، وغنمتُ وظفرتُ».

هذهِ البُشرى التي سارَعَ ابنُ عبادٍ إلى تسطيرِها في إثرِ المعركةِ المظفرةِ حملتْها، ضمن لُفافةٍ، حمامةٌ كانَ المعتمدُ قدْ جلَبها مَعَهُ مِنْ حاضرةُ مُلكِهِ، لاجراءِ مخابرةٍ سريعةٍ هامَّةٍ عِندَ الاقتضاء. فطارَتِ الحمامةُ مِنْ بطليوس إلى اشبيلية مساءَ ذلكَ اليوم في أخصرِ زَمَنٍ. فأمَرَ الأميرُ الرشيدُ بقراءةِ البُشْرى على الناسِ في المسجدِ الجامعِ. وسُرْعانَ ما عمَّ الابتهاجُ وأقِيْمَتْ صلواتُ الشُكْرِ، واقترنَ ذَلِك باضاءةِ المدينةِ وَفقاً لتقاليدِ العَصْرِ. وَهَكذا احتُفِلَ بالنَصْرِ في اشبيلية

وهي على مسيرةِ أيامٍ مِنَ الزلاقة في نفْسِ الليلةِ، وقبْلَ أنْ يغادِرَ جيشُ المرابطينَ والأندلسيين ساحةَ الحربِ الداميةِ.

وكانَ ابنُ تاشفينَ الذي أوىٰ إلى سرادقِهِ مِنْ عناءِ القتالِ قَدْ أخَذَ يُدَوِّنُ أيضاً ما كانَ مِنْ أمْرِ معركةِ الزَّلاَّقةِ المظفَّرةِ، فكتبَ إلى صاحبِ افريقية تميم بنِ المعزِّ بنِ باديسَ في مدينةِ المهديةِ بالمغربِ الأقصى، يُبَشِّرُ فيها بما تَمَّ للمسلمينَ مِنْ ظَفرٍ عظيمٍ.

وكانَتْ رسالةً مطولة، أشبَهَ بتقرير مُسْهبٍ، ذاتَ أهميةٍ تاريخيةٍ بالغة، لما انطوْتَ عليهِ مِنْ وصفٍ حَيٍّ لوقائع المعركَةِ وملابَساتِها، وذَلك بصورة تفصيلية ودقيقة، وهذا نَصُّها الكامل:

«الحمدُ للهِ الذي مَنَّ علينْا بالاسلامِ، وفَضَّلنا بِمُحَمَّدٍ نبيهِ عليهِ السلام. أحمَدُهُ حَمْداً يوجبُ

المزيدَ مِنْ آلائِهِ والسبوغَ مِنْ سرائِهِ ونعمائِهِ.

«كانَ مِنْ قضائِهِ جَلَّ ثناؤُهُ، وتقدَّستْ أسماؤه، ولمّا أرادَ قَمْعَ المَردةِ الطغاة بقوم من زِناتَةَ وغيرِهم في بلادِ المغربِ، سبَّبَ الينا منْهم المطلب، فَعَفَونا آثارَهم، وأخلينا مِنْهم ديارَهُم، وكذلك نَفعل بالقومِ الظالمينْ. فقوّمنا هنالك الدين، ومَهّدْنا بها للمسلمينَ، فصفَتْ لَنا ضمائِرَهم، وخَلُصَتْ لنا في اللهِ تعالى نياتُهم وسرائرُهم، حتى وَصَلْنا طنْجةَ الركاب وأذقنا (برغواطة) سوم العذابِ، فَفَتَحَ اللهُ لنا وبها، وهوَ خيرُ الفاتحين، وأسرعَ الحاسبينَ، لا اله غيره وَهوَ أرْحَمُ الراحمين.

«ولما بلغْنا مِنَ استحواذِ النصارى ـــ دمرهم اللهُ ـــ على بلادِ الأندلُسِ ومعاقِلها، والزامِ الجزْيَة

لرؤسائِها، واستئصالِ أقاليمِها، وايطائِهم البلادَ داراً داراً، لا يتخوفونَ عسكراً يخرجُ اليهم فيبدِّدُ جَمْعَهم، و يفلُ حدَّهُم، وهم معَ ذَلِكَ كله يقتلونَ الشِيب والشبان، و يأسرون النساءَ والصبيان. فخُوطبنا عَن الجوازِ إلى الأندلسِ مِنْ جميعِ الأحوازِ المرة بعدَ المرة، وأَلْوَتْنا الأعذار، إلى وقتِ الأقدارِ، وَلَمْ نَجِدْ للجوازِ باباً، ولا لدخولِ البحرِ أسباباً. فانضمَ لنا منهم الرئيسُ الأجلُّ المعتمدُ على اللهِ المولى بنَصرِ اللهِ، أحسنَ اللهُ في كلِ الأمورِ عوْنَهُ، وأقرَّ بكُلِّ صالحةٍ عَينهُ. فعزمنا على الغزوِ، وجوَّزْنا للعدوِ أسوداً ضارِيَةً، وسِباعاً عاديةً، شِيباً وشبانا، بسواعدَ قويةٍ، وقلوبٍ في سبيلِ اللهِ نقيَّةٍ، قد عَرَفوا الحرب وجرّبوها، فَهيَ أمُّهم وَهُمْ بنوها، يتلمظون تلمظ الفهودِ، و يزأرونَ إليها زئيرَ الأسودِ، فشحنّا منهم القواربَ، وأوْسَقْناهم على ظهورِ

المراكبِ، فَجُزنا في مَرْسىٰ الجزيرةِ الخَضْراء من دِيارِهِ وفَّقَهُ اللهُ.

فَفَزِعَ الناسُ مِنْ كُلِّ أفق إليهم، وَوَفَدوا مِنْ كُلِّ قُطْرٍ عَليهم، مُتَعَجِّبينَ مِنْ هَيْئاتهم، مُحتقرينَ لزيِهِم وَنَغماتِهِم، لا يَروعُهم منهم حاشي الخيلِ والدرَقِ (التروس)،وَهُمْ معَ ذلكَ لا ينالونَ إلاّ بَعْدَ جفِ الريقِ ومسحِ العَرَقِ. وقدّروا أنّهم طعمٌ للسيوفِ وغرضٌ للحتوفِ، وهدفٌ للأرماحِ،ونَهبٌ للسلاحِ، وكُلٌّ استَصغَرَهم، والجميعُ منهم احتقَرَهُم، وتَبْلغ إلينا أخْبارُهُم وأقوالُهمْ، وَتَنْتَهي إلينا أفْعَالُهم. ثُمَّ أتبعنَاهُم جيشاً بعدَ جيشٍ، بخيولٍ كالعجولِ، عليها الكهولُ، وعدد مِنْ كل أمرد، على أجرد، يتسابقونَ إلى اللقاءِ في القضاءِ، تَسابقَ الحَيْنِ والقضاء. ومع هذا كلِّهِ ان أهْلَ الأندلسِ

يستبشرونَ بنصرِهِم على أيدينا، وازاحةِ غَمِّهِم بسببِنا.

«وعساكرنا تتزايد، وجوازنا يتأكدُ، وكانَ آخر مَنْ جازَ منا ومعنا، قطعة مِنْ صنهاجة بني عمي، فعسر البحرِ حينئذٍ للجوازِ، واضطربَتْ مِنْهُ الأمواجُ، فاسْتَصْرخْتُ تعالىٰ جَدُّهُ وعَظُمَ اسمُهُ، ان كانَ في جُوازنا خيرةٌ للمسلمينَ أنْ يسهِّلَ علينا. فما استكملتُ من كلامي حتى سهَّلَ اللهُ المركبَ، وقرّبَ المطلبَ، فخرجْنا من الحينِ في مَرسىٰ الجزيرة الخضراء، والتأمَ شعبُنا مَعَ من جازَ مِنْ عَسكرنا فعملنا على السيرِ.

«وكانَ قَدْ تَقدَّمَ إلينا بالعَدْوةِ مِنْ قِبَلِ الأذوفونش أميرِ النصارىٰ رسالةٌ يُخاطِبُنا فيها بالجوازِ الينا إذا عَجِزْنا عنه، وفَرِقنا منه، نعطيهِ المراكِبَ

ونسلِّمُ إليهِ الشواطىءَ والقواربَ، لِيَرِدَ عَلينا، ويقاتِلنا في مأمنِنا، فَلَمْ نلتفتْ إليهِ ولا عرّجْنا عَليهِ.

«وَوَصلْنا أيدينا بالرئيسِ الأجلِّ المعتمدِ على اللهِ، المؤيدِ بنصْرِ اللهِ، واستوثَقْنا مِنْهُ غايةَ الاستيثاق، وبنينا مَعَهُ على اللحاقِ بِهِم والورودِ عَليْهِم، ونحن في ذلك كلِّهِ لما نُقِلَ إلينا وَوَرَدَ علينا مِنْ رؤساء الأندلُسِ مستبطنينَ سريرَة المخبتينَ، لا بسين كسوةَ الصالحين، وقلوبُنا شَتى، حَتى لَحِقْنا اشبيلية حضرتَهُ، عمرَتْ بِبقائِهِ، وَقَدْ تجمع لَهُ مِنْ جُنودِهِ أعدادٌ، ومن حَشمِهِ وعبيدِهِ وخَيْلِهِ ورَجلِهِ أجنادٌ. فَصرنا إلى مدينةِ بطليوس، واقَمْنا بِها أياماً، منتظرينَ لوفدِ الرؤساءِ من جَميعِ أقطارِ الأندلسِ، فأخبِرْنا وصح عِنْدَنا أنّ كلَّ واحدٍ منهم مشتغِلٌ مع

قطعةٍ كثيرةٍ مِنَ النصارى، قدْ تَغَلَّبوا على حُصُونِهم، وأذلوهم في بـلادهِم، وأضعفوهُم، وقد ينتجعونهم على مرادهم.

«فحمدْنا اللهَ تعالى، وَدَعونا بتيـسير المرادِ. واستنقاذِ العبادِ فَجمعْنَا عساكرَنا، وسِرْنا إليهِ، وَصِرْنا إلى قَفْلِ (قورية) مِنْ بلادِ المسلمينَ ـــ صَرَفَها اللهُ ـــ فَسمِعَ بِنا، وَقَصَدَ قَصْدَنا، وورد وَوردَنا، واحتلَ بفِنائِها مُنتظِراً لنا. فبَعَثْنا إليه نَحضُّه على الإسلامِ، ودخولِهِ في مِلةِ مُحَمَّدٍ عليهِ السلام، أو ضرب الجزيةِ عليهِ، واسلام ما كانَ من المالِ والبيوتِ لدْيهِ، كما أمرَنا اللهُ تعالى وبيَّنَ لنا في كتابِهِ من إعطاء الجزيَةِ عن يدٍ وهم صاغرون. فأبى وتمرَّدَ، وكفرَ ونخرَ، وعملَ على الإقبالِ، إلينا وحثَّ في الورودِ علينا، فلحقَنا وبيننا وبينَه فراسخُ. فلمّا كانَ بعدَ ذلك

برزنا عليهِ أياماً، فلم يجبْنا، فبقينا وبقوا، ونحنُ نُخرِجُ الطلائعَ إليهِ، ونتابعُ الوثوبَ عليهِ، وبنينا على الغايةِ يومِ الخميسِ لإحدى عشرةَ ليلةً خلت لرجب سنةَ تسع وسبعين وأربعمائة.

«فلما كان يومُ الجمعةِ ثانيةً، ورد علينا بكتائبَ قد ملأتِ الآفاقَ، وتقلبتْ تقلبَ الحتوفِ للأحداقِ، وقد استلأموا الدروعَ للكفاحِ، وربطوا في سوقِهمُ الألواحَ، وبطونُهم ملأى من الخمور، يقدرونَ أنَّ الدائرةَ علينا تدور، ونحنُ في أخبيتِنا صبيحةَ اليوم المذكورِ، كلٌّ منا ساهٍ، وجميعُنا لاهٍ، فقصدَ أشدَّهم شوكةً وأصلبَهم عوداً، وأنجدَهم عديداً، محلةَ المعتمدِ على اللهِ المؤيدِ بنصر اللهِ، وفّقه اللهُ، عمادِ رؤساءِ الأندلسِ وقطبِهم، يقدّرون أنْ لا عسكرَ إلاّ عسكرُه، ولا رجالَ إلاّ رجالُه ولا عديدَ إلاّ عديدُه،

وداؤود من أصحابِنا منا إلى ازائِه، فهبطوا إليهِ لفيفاً واحداً، كهبوطِ السيلِ بسواقِ الخيلِ.

«فلمّا رآهم مَنْ كانَ معَه من جُندِهِ، ومِنْ جميعِ الطبقاتِ الذينِ كانوا يدَّخِرونَ من قبله الأموالَ والضِياعَ (أيْ امراء الأندلس) استكت آذانُهم، واضطربَتْ أضلاعُهم، ودُهشت أيديهِم، وُزلزِلت أقدامُهم، وطارَتْ قلوبُهم وصاروا كركبِ الحميرِ، فرّوا يطلبونَ معقِلاً يعصِمُهُم، ولا عاصمَ إلاّ اللهُ ولا هاربَ منهُ إلاّ اليهِ. فلحقوا من بطليوسَ بالكرماتِ لمّا عاينوا من الأمورِ المعضلاتِ، وأسلموهُ أيدهُ اللهُ... وحدَه في طرفِ الأخبيةِ مع عددٍ كبيرٍ من الرجالةِ والرماةِ قد استسلموا للقضاءِ.

فوثبوا عليهِ (على المعتمد) وثْبَ الأسدِ على الفرائسِ، يعظمونَ الكنائسَ، فحبَسهُم حيناً وحدَه

مع من اليهِ ممن ذكرناهُ، وبسطوا منهمُ الأرضَ، ولم يبقَ من الكلِّ الاّ البعضُ، ولجأَ في الأخبيةِ بعدَ أنْ عاينَ المنيةَ وتخلّصَهُ اللهُ بَنيّتَه في المسلمينَ وبلّغَه أمنيتَه، بعد أنْ وقفَ وِقفةَ بطلٍ مثله، لا أحدَ يردُّ عليهِ، ولا فارسَ من فرسانِهِ وعبيدِهِ يرجعُ إليهِ، ولا يروعُهُ أحدٌ منهم فيُهْزَمُ، ولا يهاجمُ فيسأمُ.

«ثم قصدَتْ كتيبةٌ سوداءُ (من الفرنجة) كالجبلِ العظيمِ، أو الليلِ البهيمِ، عسكرَ داوودَ وأخبيتِهِ فجالوا فيها جولاناً، وقتلوا من الخلقِ ألواناً، واسْتُشْهِدَ الكلُّ بحمدِ الله، وصاروا إلى رضوانِ الله.

«ونحن في ذلكَ كلِّهِ غافلونَ، حتى وردَ علينا واردٌ، وقصدَ الينا قاصدٌ، فخرجنا من وراءِ الشِعبِ كَقِطَعِ اللهبِ، بجميعِ من معَنا على الخيلِ المسوَّمةِ العِرابِ، يتسابقنَ للطعنِ والضِرابِ، فلمّا رأونا،

ووقعتْ أعينُهم علينا، ظنّوا أنّ الدائرةَ فينا ولدَينا، وانّا طعمُ أسيافِهِم ولقاءُ أرماحِهِم. فكبّرنا وكبرَ الكلُّ معنا، مبتهلينَ للهِ وحده لا شريكَ له، ولا محيصَ لأحدٍ عنه، وقلنا هذا آخرُ يومنا من الدنيا، فلنمُتْ شهداءَ.

فحملوا علينا كالسهامِ، فثبَّتَ اللهُ أقدامَنا، وقوّى أفئدتنا، والملائكةُ معنا، واللهُ وليُّ النصرِ لنا، فولوا هاربينَ، وتساقطَ أكثرُهُم بقدَرِ اللهِ تعالى دونَ طعنةٍ تلحقُهُ، ولا ضربةٍ تثخنُهُ. وأضعفَ الرعبُ أيديهِم، فطعنُهُم بالسَّمْهرِيَّةِ دون الوخزِ بالابرِ، وضاقت بهِمُ الأرضُ بما رحُبتْ، حتى إنّ هاربَهم لا يرى غيرَ شيءٍ الاّ ظنَّه رجلاً، وفتكتْ فيهِمُ السيوفُ، على رغمِ الأنوفِ، فواللهِ لقد كانت تقعُ على الدروعِ فتفريها، وعلى البيضاتِ فتبريها، وزَرَقَ

الرجالةُ منا على خيلِهِمُ الرماحَ، فشكّوهم بها، فرمَحتْ بهِم، فما كنتَ ترىٰ منهم فارساً إلاّوفرسُهُ واقفٌ على رأسِهِ لا يستطيعُ الفرارَ، الكلُّ يجرُّ عنانَه كأنّه معقلٌ بعقالِهِ، ونحن راكبونَ على الجوادِ الميمونِ، العربيِّ المصونِ، السابقِ اللاحقِ، المُعَدِّ للحقائقِ، وما منا إلاّ من لهُ جرابانِ فيه سيفانِ، وبيدنا الثالث لما عسى أنْ يحدثَ من حادثٍ، فصاروا في الأرضِ مجدَّلين، موتى معفّرينَ.

«وقد تراجعَ الناسُ بعدَ الفرارِ، وأمنوا من العثارِ. وتظافروا مع عسكرِنا، وغيرهم، يقطعونَ رؤسَهم، وينقلونَها بازاءِ المحلاتِ، حتى علتْ كالجبالِ الراسياتِ، عددٌ لا يقدَّرُ ومَدَدٌ لا يحزَّرُ، والتجريدُ فيهم، والأيدي متعاورَةٌ لبطونِهم. واستأصلْنا أكابِرَهم، وحُلنا دونَ أباطيلِهم

وأمانيهِم، وما ربُّكَ بغافلٍ عما يعملُ الظالمونَ.

«وانقطعَ من عسكرِهم نحو ألفَيْ رجلٍ أو أقل، والأدفونش فيهم ـ على ما اخبرنا ـ وقد أثخِنوا جراحاً بازاءِ محلاتِهم، يرتادونَ الظلامَ للهروبِ في المقام. ووالله ِ لقد كانَ الفرسانُ يدخلونَ محلتَهم، ويعيشونَ في أخبيتِهم، وينتهبونَ أزودتهم، وهم ينظرونَ شزراً، نظرَ التيوسِ على شفارِ الجزارينَ، إلى أنْ جنَّ الليلُ وأرخى سُدُولَه، فولوا هاربينَ، وأسلموا رحائلَهم صاغرينَ. فكم من دلاصٍ على البقاعِ ساقطة، وخيول على البطاح رافضة، وقد ارتبطَ كلُّ فارسٍ منا الخمسةَ أفراسٍ أو أزْيَد، وأمّا البغالُ والحميرُ فأكثرُ من ذلكَ، وأمّا الثيابُ والمتاعُ فناهيكَ، والأسّرةُ بأوطيةِ الحريرِ والثيابِ والأوبارِ عددُ ليلِهم، ولا يكلّونَ من الانتقالِ ولا يسأمونَ من تشريطِ الأموالِ.

«ولحقوا قورية، ومنها حيث ألقتْ رحلَها أمُّ قشعمٍ[1]، فصححنا ضمائِرَنا، وأخلَصنا للمعتمدِ على الله نياتِنا وسرائِرَنا بحمدِ الله ِغانمينَ منصورينَ، لم يُسْتَشْهَدْ منا إلاّ الفِرْقةُ التي قدَّرَ اللهُ عليها بذلكَ، وقدَّرْنا أنّ الكلَّ منهم هالكٌ، لقلةِ معرفتِهم، وجهالتِهم بقِتالِ النصارى، وتراميهِمُ للشهادةَ، قدَّسَ اللهُ أرواحَهم، وأكرمَ مثواهُم وضريحَهُم، وجعلَ الجنةَ ميعاداً بيننا و بينهم، وفقَدْنا من أكابرِنا نحو عشرينَ رجلاً ممن شُهِرَت نجدتُه في المغربِ، وانقلبَ خيرَ منقلَبٍ.

«ولحقنا اشبيليّة حضرتَه ــعمرت ببقائِهــ وأقمنا عدةَ ايامٍ. ورفعنا عنهُ مودعينَ، لا توديعَ قاطعٍ، ولا يمنعُنا منه متى أحبَّ مانعٌ، ولحقنا الجزيرةَ الخضراءَ، ونحنُ نريدُ أشياءَ أسألُ اللهَ تمامَها

(١) أي وردوا مورد الهلاك.

وإنجازَها، وأن يسهِّلَ المرادَ، ويوفقنا للسدادِ، ومتى تنفسَ منهم متنفسٌ، أو رجعَ إلى أحدٍ منهم نفسٌ، يذكرونَ ما لقوا، ويتذاكرونَ ما بقوا، وسنستدرجُهُم من حيثُ لا يعلمونَ. وأُملي لهم إنّ كيدي متينٌ، حتى لا يبقى على أديمِ الأرضِ منهم حيٌّ، ولا يحسّ منهم انسيٌّ.

«والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على ما قضى وخوّلَ وأعطى، وهذا كلُّه منّاً مَنَّهُ علينا، وصلى الله على محمدٍ خاتمِ النبيينَ، وقائدِ المحجّلينَ، إلى جناتِ اللهِ النعيمِ، وآله الطيبينَ، وسلّمَ تسليماً. والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاتُه».

* * *

وحين وصلَ هذا الكتابُ إلى ديارِ المرابطينَ في

افريقيةَ حاملاً بشرى الانتصارِ العظيمِ، سرى النبأ في البلادِ سريانَ النارِ في الهشيمِ، وعمّتِ الفرحةُ الناسَ أجمعينَ. وقد قُرِىء كتابُ ابنُ تاشفينَ إلى ابنِ باديس وما تلاهُ من كتبٍ على منابرِ جميعِ المساجدِ الإسلاميةِ في ربوعِ المغربِ. واحتُفلَ بهذا النصرِ المؤزرِ في بلادِ العربِ والمسلمينَ ايّما احتفالٍ. حتى لقد امتدَّ الابتهاجُ إلى بلادِ المشرقِ، فأكبرَ الناسُ ذلك الحدثَ، وأعجِبوا ببطولةِ ابنِ تاشفينَ وعظّمُوه. وقيلَ إنّ الامامَ الغزاليَّ هنأهُ بهذا النصرِ المبينِ، واعتبرَه الأميرَ المثاليَّ الذي كان يرجو أنْ يُظهرَه اللهُ ليعيدَ للإسلامِ سابقَ صولتِهِ وسالفَ قوتِهِ. كما كتبَ الأمراءُ المعاصرونَ إلى أميرِ المسلمينَ مهنئينَ مباركينَ. واستقرَّ في أذهانِ المؤرخينَ أنَّ يومَ الزلاقةِ من الأيامِ الغرِّ في تاريخِ المسلمينَ، وأنّهُ في

ذلكَ بمنزلةِ يومِ اليرموكِ و يوم القادسيةِ.

كشف الحساب

لم تتفقْ رواياتُ المؤرخينَ على عَدَدِ كلٍّ من الجيشينِ المتحاربينِ اللذينَ تلاحما في سهلِ الزَّلاَّقةِ. وتتراوحُ تقديراتُ العربِ لقواتِ الفرنجةِ بينَ أربعينَ ألفاً ومائةٍ وثمانيةٍ وأربعينَ ألفاً ولقوات المسلمين بين عشرين ألفاً وثمانيةٍ وأربعين ألفاً، أمّا مصادرُ الفرنجةِ فهي على النقيضِ من ذلك، إذ ترتفعُ بعددِ قواتِ المسلمينَ إلى بضعِ مائةِ ألفٍ، أو تقولُ إنّ عددَها لا يحصى كجيشٍ من الجرادِ المنتشرِ. ويكادُ كلُّ جانبٍ يلزمُ الصمتَ حولَ العدد الحقيقيِّ لأعدادِ جندِهِ، على حينِ يبالغُ في تقديرِ قوةِ الجيشِ الآخرِ.

١ ــ وقد نقاربُ الحقيقةَ إذا قدرنا قواتِ كلِّ فريقٍ بنحو مئةِ ألف ٍإلى مائةٍ وخمسينَ. وهذا عددٌ ضخمٌ بالنسبةِ إلى ذلكَ العصرِ، أي القرنِ الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. ذلكَ أنّ جيش المرابطينَ الذي عبرَ به ابنُ تاشفين إلى اسبانيا لا يحتملُ أنْ يزيدَ كثيراً على سبعينَ ألفاً، ويمكنُ أنْ نقدِّر ما حشدَه أمراء ُالأندلسِ بمثلِ هذا العددِ.

على أنَّهُ اجتمعَ في جيشِ الفرنجةِ تحتَ لواءِ الفونسو وبدعمٍ قويٍّ من الكنيسةِ الرومانيةِ أعدادٌ وافرةٌ وجموعٌ غفيرةٌ من المجاهدينَ والمتطوعةِ الفرنسيينَ والإيطاليينَ فضلاً عن مقاطعاتِ اسبانيا نفسِها.

وما من شكٍ في أنّه كان لعاملِ الزمنِ في مثلِ هذهِ الحروبِ ومعَ هذهِ الأعدادِ الكبيرةِ في جيوشِ الطرفينِ أهميةٌ بالغةٌ، لأنّ قضيةَ تأمينِ القوتِ من

مأكلٍ ومشربٍ لهذهِ القوةِ الضخمةِ ولمدةٍ طويلةٍ كانت مشكلةً بالغةَ التعقيدِ، ولا سيَّما إذا طالَ أمدُ القتالِ.

٢ ــ أمّا الخسائرُ التي انجلَتْ عنها تلكَ المعركةُ الكبرى فلا شكَّ أنَّها كانت فادحةً تتناسب مع حجمِها وضراوتِها. لقد سقطَ من القتلى لدى الجانبينِ آلافٌ وآلافٌ وكانت خسارةُ المسلمينَ ولا سيَّما الأندلسيينَ في ضحى ذلكَ اليومِ جسيمةً، غير أنَّ الفرنجةَ فقدوا بعد ذلكَ معظمَ جيشِهم، حتى كانَ من رؤوسِ قتلاهُم تلٌّ عظيمٌ.

٣ ــ ولما جُمِعَتْ غنائمُ معركةِ الزّلاّقةِ، وكانَ ذلك قد استمرَ ثلاثةَ أيامٍ، تبيَّنَ أنَّها وفيرةٌ غزيرةٌ، حتى إنَّ المحاربَ كان يجرُّ وراءهُ أربعةً أو خمسةً من الخيلِ، عدا كثيرٍ من الذخائرِ والأعتدةِ. وحين عُرِضَتْ على ابنِ تاشفينَ عفَّ عنها، وآثر بها ملوكَ

الأندلسِ، فبيَّنَ بذلك للملأ أنَّهُ زاهدٌ في زادِ الدنيا، راغبٌ في زادِ الآخرةِ، وأنّ هدفَهُ إنّما كانَ الجهادُ في سبيلِ الله. فعظَّمَه الناسُ ودعَتْ لهُ الأئمةُ على المنابرِ، وسَمَتْ منزلَتهُ في النفوسِ.

٤ ــ وكانَ من نتائجِ معركةِ الزَّلاَّقةِ أنَّ ابنَ تاشفين حرَّرَ ملوكَ الطوائفِ، بنتيجةِ انتصارِهِ العظيمِ، من دفعِ الجزيةِ إلى ملوكِ الفرنجةِ، فكانَ أنْ تنفسَ أولئكَ الحكامُ الصعداءَ بعد أنْ أثقلَ ذلك كاهلَهم سنينَ طوالاً.

٥ ــ وفي الوقتِ نفسِهِ أمرَ زعيمُ المرابطينَ برفعِ الضرائبِ الباهظةِ عن كواهلِ العامةِ الكادحةِ التي كانَ يطلبُها أمراؤهم بالحقِّ وبالباطلِ، ودونَ هوادةٍ. إذ المرابطونَ دعاةُ جهادٍ وأصحابُ رسالةٍ، إنهم يرومونَ العدلَ ويمقتونَ الظلمَ، ويدأبونَ في طلبِ

الإِصلاحِ. وكان ذلك مدعاةَ اغتباطٍ لا حدَّ له بين الناسِ، فلهجَتْ ألسنتُهم بالدعاءِ لابنِ تاشفينَ، وتمكَّن حبُّهُ من قلوبِ الأندلسيينَ. وكأنَّ المرابطينَ حقَّقوا في اثرِ معركةِ الزّلاّقةِ نصْراً على طغيان الفرنجةِ ونصْراً على استبدادِ الأمراءِ.

٦ ـــ وما من ريبٍ في أنَّ الأندلسَ، في مرحلةِ ما بعدِ الزلاقةِ نعمَتْ بهدوءٍ امتدَّ أجلُه، وطالما افتقدتْهُ وتاقَتْ اليهِ، بعد أنْ سلبَها الفرنجةُ نعمةَ الاستقرارِ بتهديدِهِمُ المستمرِّ لمسلمي الأندلسِ في مالِهم وأرضِهم، ودينِهم وعرضِهم. وما من شكٍّ في أنَّ هذا النصرَ المباركَ قد أبعدَ خطرَ الفرنجةِ عن بلادِ الأندلسِ أمداً طويلاً، بعد أنْ كُسِرَتْ شوكتُهم. وهذا ما أمدَّ في أجلِ الوجودِ العربيِّ في اسبانيا زُهاءَ أربعةِ قرونٍ أخرى، على حينِ كان شبحُ الكارثةِ

الكبرى يلوحُ قبلَ معركةِ الزّلاّقةِ في كلِّ لحظةٍ أمامَ أعينِ الأندلسيينَ.

٧ ــ ومن الجليِّ أنَّ التحامَ المسلمينَ بالفرنجةِ في سهولِ الزلاقةِ إنَّما هو في حقيقةِ الأمرِ صفحةٌ بارزةٌ من سيرةِ الحروبِ الصليبيةِ التي كانت ربوعُ اسبانيا والأندلسِ مهداً لها. ثم لم تلبثْ هذهِ الحروبُ أنِ استعرتْ بعد حينٍ في المشرقِ. وكما توحَّدَتْ قوى المرابطينَ والأندلسيينَ تحتَ لواءِ الإسلامِ، توحدَتْ في الوقتِ نفسِهِ قوى القشتاليينَ والأرغونيينَ ومَنْ إليهم تحتَ لواءِ المسيحيةِ. وكانَ الجهادُ في الحالينِ، ولدى كلِّ طرفٍ، هو الشعارُ الذي رفعَتْه القوتانِ العظميانِ في تلكَ البلادِ القصيةِ من العالمِ القديمِ.

* * *

أمّا عواملُ النَّصْرِ فكانت عديدةً لعلَّ من أهمِّها

ما يلي:

١ ــ كان التسلحُ قوياً لدى الجانبينِ على حدٍّ سواءٍ. فالفارِسُ أوِ المحاربُ القشتاليُّ أو الأرغونيُّ كان مُدَجَّجاً بالسلاحِ، يرتدي درعَه، و يعتمِرُ خوذَته، ويحملُ بينَ يديهِ ما وسعَه من سلاحٍ قوامُه السيفُ والترسُ والرمحُ وما إلى ذلك، وكان منظَرُهُ يوقِعُ الرهبةَ في النفوسِ.

ولم يكنِ المقاتلُ الأندلسيُّ أوِ الأفريقيُّ على هذا القدرِ من الاستعدادِ، ولكنَّهُ مع ذلك كانَ يصطحِبُ معهُ ثلاثةَ سيوفٍ، واحدٌ في ساعدِهِ وآخرانِ بينَ جنبيهِ.

كذلكَ كانَ شأنُ الأفارقةِ ولا سيما السودِ الذين يشكلونَ الوحدةَ الخاصةَ من قواتِ ابنِ تاشفين إذ كانوا يحملونَ مزاريقَ من الزانِ وتروساً من اللمطِ

وسيوفاً من الهندِ.. كما تتحدثُ بذلك صفحاتُ التاريخِ.

فهل كانَ هذا التسلحُ عاملاً فاصلاً في الحاقِ الهزيمةِ بالأعداءِ وتحقيقِ النصرِ عليهم؟ لا شكَّ أنَّهُ، لا السلاحُ، الذي لم يكن لدىٰ المسلمينَ بأفضل مما لدى الفرنجةِ، ولا العددُ، الذي لم يكن لدىٰ المسلمينَ بأكبر مما توفَّرَ أيضاً لدىٰ الفرنجةِ، كانَ لهما ذلكَ الأثر، وكلُّ ذلكَ لم يكن مما حسمَ الأمرَ، وإنّما هي الروحُ المعنويةُ.

٢ ــ لقد كانتِ الروحُ المعنويةِ مرتفعةً لدى الطرفينَ، تُذكيها الحماسةُ الدينيةُ اللاهبةُ. والمرابطونَ على وجهِ الخصوص بُداةٌ صحراويونَ،لهم تقاليدُ قبليةٌ راسخةٌ، تُملي عليهِم أنْ يثبُتوا ولا

يتزحزحوا حتى الموتِ كيلا يلحقَ بهِمُ العارُ، كما كانوا فضلاً عن ذلكَ مؤمنينَ بعقيدةِ الاسلامِ إيماناً لا حدَّ لَهُ. إنَّهُمُ اتخذوا من الجِهادِ في سبيلِ اللهِ شِعاراً في حياتِهِم، وآمنوا بأنَّ الموتَ سبيلٌ إلى الاستشهادِ، وطريقٌ إلى الجنةِ، وسبيلٌ إلى رضى الخالقِ.

٣ ــ كان الفرنجةُ يعتمدونَ على البطولةِ الفرديةِ ومهارةِ فرسانِهِم، غيرَ أنَّ جيشَ المرابطينَ كانَ يعتمدُ على التنظيمِ في وحداتٍ متجانسةٍ وصفوفٍ متراصةٍ، ولم يكن هذا سائداً حتى عندَ الأندلسيينَ. ومن هنا خاضَ الفرنجةُ ضدَّ المسلمينَ هذهِ المرةِ في سهلِ الزَّلاَّقةِ حرباً مختلِفةً عما عهدوه.

٤ ــ لعلَّ أبرزَ ما واجَهَ جيشَ الفرنجةِ من ظروفٍ غيرِ مألوفةٍ خلالَ معركتِهم ضدَّ المسلمينَ في الزلاقةِ مشاركةُ الابلِ في الحربِ للمرةِ الأولى في

أوربا بعد أنْ عبَرَتْ من صحراءِ المغربِ بافريقيا إلى اسبانيا المُسْلِمةِ. ولا شكَّ أنّ امتطاءَ الملثمينَ الأفارقَةِ لتلكَ الجمالِ، بضخامةِ حجمِها وارتفاعِ قوائمِها قد أعطاهُم ميزةً على أقرانِهم في القِتالِ. على أنَّ الأهمَّ من ذلكَ ما عملتْهُ هذهِ الجِمالُ من مفاجأة للفرنجَةِ سبَّبَت لهم غَير قليلٍ من الارتباكِ، حتى إنًّ خيولَهُمْ جَمحتْ بهِم عندَ أولِ صِدامٍ. وهذا يذكّرُنا ما لقيَه المسلمونَ يومَ القادسيةِ أول أمرِهِم من ظهورِ الفِيَلَةِ التي واجههم بها الفرسُ.

أمّا الطبولُ فقد كانَ أمرُها أغربَ، حينما طلعتْ على الفرنجةِ فِرقةٌ خاصةٌ من حَمَلَةِ الطبولِ، وراحت تقرعُ بأذرعتِها قرعاً شديداً كانت تهتزُّ له الأرضُ وتهتزُّ معَها أفئدةُ الفرنجةِ. ولعلَّ هذهِ العادةِ التي دأبَ عليها المرابطونَ في حروبِهم اقتبسوها من جيرانِهِم

زنوجِ افريقيةِ.

٥ ــ على أنَّ أهمَّ عواملِ النصرِ دونَ مراءٍ ذلكَ التضامنُ الرائعُ بينَ قوى المسلمينَ ولا سيما بين الأفارقةِ والأندلسيينَ، إذا اعتصموا جميعاً بحبل الله وكانت يدُ الله مع الجماعةِ.

٦ ــ وبقيَ الآنَ هذا السؤالُ الذي يلحُّ على الأذهانِ، وهو: إلى أيّ مدىً كانت معركةِ الزّلاّقةِ حاسمةً؟

لا ريبَ في أنَّ معركةَ الزلاقةِ من أشدِّ المعاركِ التي شهدَها العربُ والمسلمونَ في تاريخِهِم ومن أضخمِها حجماً، لما حُشِدَ لها من قُوّاتٍ، وما اعدَّ لها من اعتِدَةٍ، ثم لما أسفرَتْ عنه من كثرةِ الضحايا.

ومع ذلك، وبرغمِ هذا النصرِ المبينِ الذي حقّقَهُ المسلمونَ يومئذٍ، فإنَّ الفرنجةَ استطاعوا بعدَ حينٍ أنْ

يعاوِدوا اعتداءاتِهم على مواطنِ الأندلسيينَ وأنْ يعيدوا سيرتَهُمُ الأولى، بل إنّ الفونسو المهزومَ نفسَه استأنفَ بعدَ أمدٍ قصيرٍ تهديدَه المعهودَ لملوكِ الطوائفِ. ألم يرتكبِ المسلمونَ خطأً جسيماً حينَ اكتفوا بإحرازِ النصرِ العسكريِّ ضمنِ نطاق سهلِ الزلاقةِ؟ لماذا لم يمضوا خلفَ الفرنجةِ إلى النهايةِ بعد أنْ تحطَّمَ جيشُهم، وتشتّتَ شملُهم، وأثخِنَ بالجراحِ قائدُهم. لقد أصبحَ الطريقُ إلى طليطلةَ نفسِها ومملكةِ قشتالةَ مفتوحاً، كما كان استكمالُ النصرِ الشاملِ ميسوراً. هذا الرأيُ كانَ في حقيقةِ الأمرِ رأيَ المعتمدِ بنِ عبادٍ، وهو أعرفُ الناسِ بأساليبِ الفرنجةِ، غيرَ أنَّ ابنَ تاشفين عارضَ هذا الاقتراحَ قانعاً بما تحقَّقَ بينَ يديهِ من نصرٍ، فأمَرَ جيشَهُ بالكفِّ عن مطاردةِ فلولِ الفرنجةِ. فما تعليلُ ذلكَ؟

هل كانت وفاةُ ولدِهِ الأكبرِ أبي بكرٍ سير، الذي وصل نعيُه قُبيلَ المعركةِ هو السبب في اكتفاء يوسفَ بما كانَ، وتعجيلِه بالعودةِ إلى أفريقيا.

وهل كانت أيضاً وفاةُ حاكمِ افريقيا وإمام المرابطينَ هي سبب عودةِ ابنِ تاشفينَ المفاجئةِ إلى بلادِهِ كي يرثَ الملكَ قبلَ أنْ يسبقَه إليه منافسوه الطامعونَ، منتهزينَ فرصةَ غيابِهِ البعيدِ الطويلِ.؟

ثم هل كانَ الكفُّ عن مطاردةِ الفونسو الهاربِ وفلولِ جيشِه المنهزمَة، تطبيقاً لتقاليدِ المرابطينَ الصحراويينَ التي تأبى طعنَ العدوِّ والخصمِ من الخلفِ، والعفِّ عن مطاردتِه ما دامَ مولياً الأدبارَ...؟

كلُّ ذلك أو بعضُه قد يكون صحيحاً. ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ معركةَ الزَّلَّاقةِ، على أهميتِها، لم

تكن معركةً حاسمةً بالمعنى الدقيق. صحيحٌ أنَّها أفسحت في بقاءِ العربِ أمداً طويلاً بعدَها في بلادِ الأندلسِ، وخضَدت شوكةَ الفرنجةِ زمناً مديداً، إلاّ أنّها كانت ــ لو قُدِّرَ للمسلمينَ أنْ يمضوا فيها إلى نهايةِ الشوطِ ــ جديرةً بأن تغيرَ خارطةَ أوربا وتحدثَ تحولاً أساسياً في مسيرةِ التاريخِ.

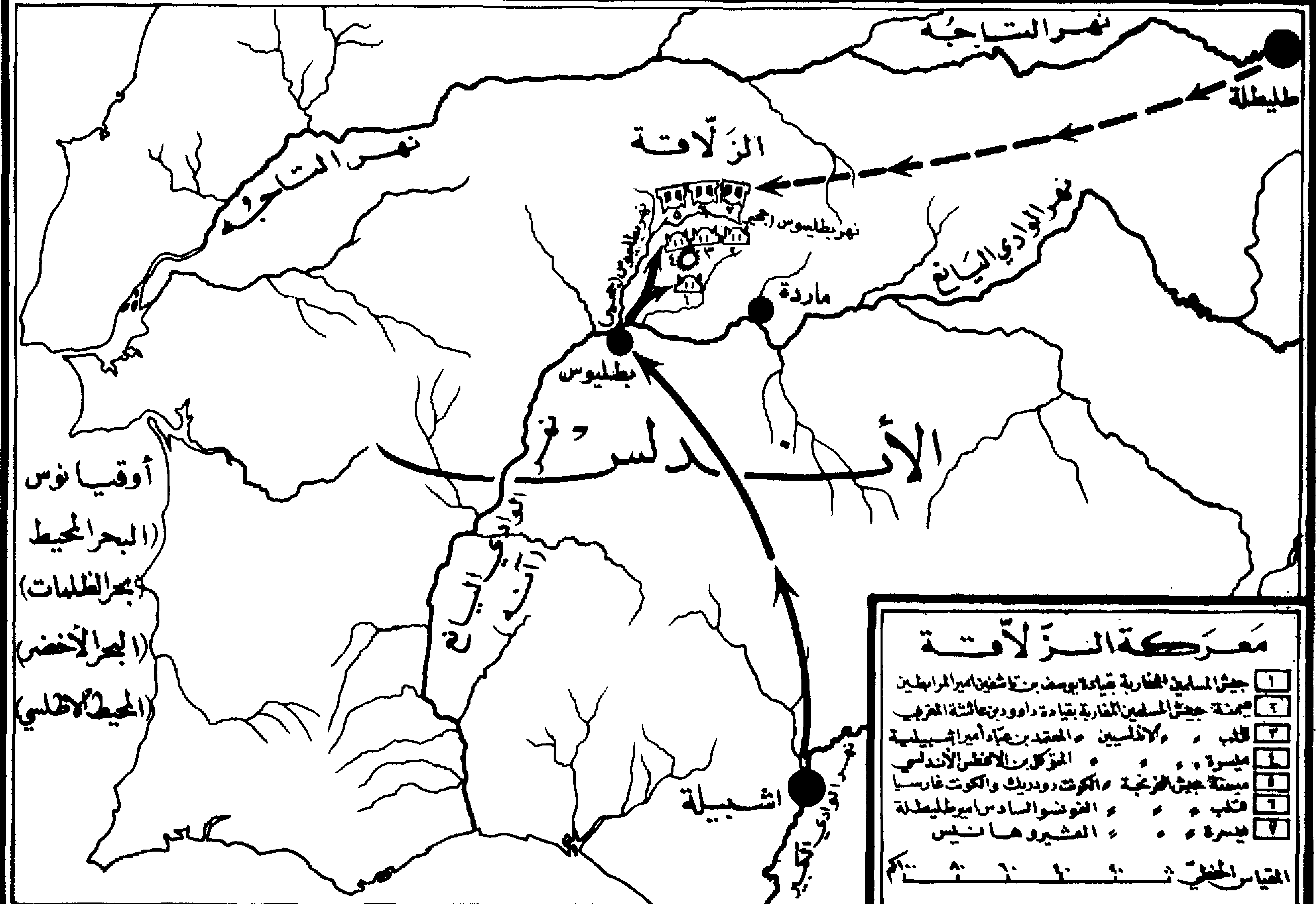
المحتوى

معركة الزلاقة (٤٧٩) (١٠٨٦)م

←	النجدات التي انضوت تحت لواء الجيش الإسلامي بقيادة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين
← - - -	نجدات الفرنجة التي انضوت تحت لواء الجيش المسيحي بقيادة الفونسو السادس.
← (خط عريض)	جيش المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين.
← - - - (خط عريض)	جيش المسيحيين بقيادة الفونسو السادس.

المقياس الخطي ٠ ١٠٠ ٢٠٠ كم

خليج الانقليشيين
(غسقونيا) (الباسك)
فرنسة
إيطاليا
أوقيانوس (البحر المحيط)
(بحر الظلمات) (البحر الأخضر)
بلاد ليون
أرض جليقية
قشتالة
نافار
ببلونة
وادي إبرة
نهر دويرة
الأندلس
سرقسطة
الثغر الأعلى
(مدريد)
طليطلة
نهر تاجة
الزلاقة
هروب جيش الفونسو
جيش الفونسو السادس
بطليوس
ماردة
بنو ذي النون
الوادي اليابغ (آنة)
الوادي الكبير
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
جبل الفتح (جبل طارق)
الجزيرة الخضراء
باب الزقاق (مجاز الأندلس) (مضيق جبل طارق)
طنجة
سبتة
المرابطون جيش يوسف بن تاشفين
المغرب العربي
الجزائر البحرية
جزيرة منورقة
جزيرة ميورقة
جزيرة يابسة
البحر الشامي
(بحر الروم)
(البحر المتوسط)


معركة الزلاقة
١ جيش المسلمين المغاربة بقيادة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين
٢ ميمنة جيش المسلمين المغاربة بقيادة داود بن عائشة المغربي
٣ قلب 〃 الأندلسيين 〃 المعتمد بن عباد أمير إشبيلية
٤ ميسرة 〃 〃 〃 المتوكل بن الأفطس الأندلسي
٥ ميمنة جيش الفرنجة 〃 الكونت رودريك والكونت غارسيا
٦ قلب 〃 〃 〃 ألفونسو السادس أمير طليطلة
٧ ميسرة 〃 〃 〃 المشير وهانيس
المقياس المنطقي ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠كم
نهر التاجه
طليطلة
الزلاقة
نهر التاجو
نهر الوادي اليانع
نهر بطليوس
مارده
بطليوس
الأندلس
أوقيانوس
(البحر المحيط)
(بحر الظلمات)
(البحر الأخضر)
(المحيط الأطلسي)
اشبيلية
نهر الوادي الكبير

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر

والدكتور عمر الدقاق

والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع إلى العصر الحديث.

١ ـ معركة الحدث الحمراء ٢ ـ معركة الزلاقة ٣ ـ معركة حطين ٤ ـ معركة الأرك

٥ ـ معركة المنصورة ٦ ـ معركة عين جالوت ٧ ـ معركة فتح القسطنطينية ٨ ـ معركة وادي المخازن

٩ ـ معركة ميسلون ١٠ ـ معركة الجبل الأخضر

سِلسِلَة تعلمنا أنَّ النصرَ لا يُحقِّقهُ إلا القادِرونَ على الموتِ في سَبيلِه

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية

حلب ـ المسلمية ـ المنطقة الحرة ـ